عنترة بن شدّاد

١٥



دار المعارف بمصر

عنترة بن شداد

عنترة بن شدّاد

١٥

تأليف

حسن جوهر   محمد أحمد برانق

أمين أحمد العطار

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

١

وذات يوم طلب الأسد الرهيص الكسب والزاد فى مائة فارس من بنى نبهان ، واستمر سائراً بهم حتى مياه بنى عدنان ، فعثر بحلة كثيرة النوق والجمال ، وأهلها فى أمنهم لاهون مرحون ، فقال لبعض فرسانه : سوقوا هذه الأموال أمامكم ، وسأتخلف عنكم فى البقية الباقية منكم ، لأرد عنكم من ينفرون من أصحابها فى طلبكم ، فساقوها وكانت ستة آلاف ناقة وجمل وعلم رجال الحلة فأسرعوا إلى خيلهم ، ونفروا يطلبونهم ، يقدمهم غلام جميل المحيا بديع القوام ، وهو ينادى مستنفراً قومه وعشيرته : يا لذهل وشيبان ! ! يالعبس وعدنان ! ! أنا خميصة بن عنترة !

كان عنترة قد كفل هذا الغلام طفلا صغيراً ، ونشأه فى الفروسية ، وملاقاة الأبطال ، وخوض معارك القتال ، حتى كان بطلا مغواراً لا يهاب الموت ولا يخشاه ، وذلك أنه كان قد أغار على بنى ذهل وشيبان ، وغنم أموالهم وقتل كثيراً من أبطالهم ، ومنهم والد هذا الغلام فجاءت أمه إلى عنترة تحمل طفلها على كتفها ، وقلبها يكاد ينفطر من الحزن والأسى ، وعيناها تنهمر دموعهما انهماراً ، فقالت : يا حامية بنى عبس ، يا من عرفت بالمروءة وكرم النفس ، يا من يلجأ إليك الضعيف ، ويستنجد بك الملهوف ، ارحم ترحم ، واعف تسلم وتغنم ، هذا ولدى الصغير ، قتلت

والده ، وأخذت أمواله ، وما تركت لى منها شيئاً أكفله به وأربيه ، فدمعت عينا عنترة ، وأطلق سراح ما أخذه من المال جميعه من أجلها ، وقال لها : ولدك هذا فى كفالتى حتى يكون رجلا ، وكان ما وعدها به عنترة ، حتى استقل فى حلته ، وكان مقدم فرسانه ، وجاء هذا اليوم الذى أغار فيه الرهيص وساق أموالهم ، وانتظر فى جماعة من رجاله ليحاربهم ويردهم .

ولما سمع الأسد الرهيص نداء الغلام انتعش وسأل أصحابه : هل تعرفون هذا الغلام الذى انتسب إلى عنترة ؟ فقال أحدهم : أنا أعرفه وأعرف من رباه ، وقص عليه قصته . ثم قال : وهذا الغلام أعز على عنترة من نفسه ، فإن أردت ثأراً فعليك به ، ولا تتركه . ففرح الأسد الرهيص وحمل على فرسان ذهل وشيبان فردهم على أعقابهم ، وما ثبت أمامه إلا هذا الغلام فقال له : أنسيت ما فعله معك أبى عنترة فجئت تخونه فى ابنه وتغدر به ؟! ولكنك ما جئت إلا لتقتل نفسك ، بسيف خيانتك وغدرك ، ثم تبارزا وتصاولا ، وما لبثا غير قليل حتى كان الغلام أسيراً ، ولما وصل المهزومون إلى الحلة أخبروا أمه بأسره ، فركبت ناقتها وذهبت إلى عنترة ، فألفته يلهو ويطرب فى وليمة جمعت أولاده وإخوته وفرسانه ، والملك قيساً وإخوته ، فنزلت عن ناقتها ، وشقت جيبها ، ولطمت وجهها ، ورفعت بالبكاء صوتها وقالت : يا لعبس ! أما من مجير ! أما من ناصر ومعين ! فاجتمع حولها الرجال والنساء وعرفوا شأنها ، وقام إليها عنترة وسألها : ما دهاك

وأحزنك ؟ فعرفته بنفسها وقصت عليه قصتها ، فابتأس عنترة وجزع وقال : ويل لك يا بن الفاعلة ! ! أقيمى عندى يا سيدتى ، وسأسير إليه اليوم ، وأسقيه كأس الموت ، وأرد إليك ابنك وأمواله فى عافية وسلام . ثم رجع إلى قيس وأخبره ، فما نطق هو ولا أحد من الحاضرين إلا بلعنه وشتمه ، وقال الملك : وماذا نويت يا عنترة ؟ فقال : أن أسير إليه اليوم وأقتله ، فقال : أرى أن تبعث إليه رسولا ، فربما كان لا يعرف الغلام ، ولا يعرف أنه منسوب إليك ، فإن اعتذر وأطلقه فاعف عنه ، وإن عاند وكابر فاذهب إليه واقطع عنقه ، فأمر عنترة عروة أن يكتب إليه بذلك . فكتب كتابين جاء فيهما : سبحانك ربى ، أعتقت الرقاب ، وخلقت آدم من تراب ، من عنترة بن شداد ، حامية بنى عبس ، إلى الأسد الرهيص فارس بنى نبهان . أما بعد ، فقد شكت إلينا أم خميصة أنك أسرت ولدها ، ونهبت أمواله ، وقتلت رجاله ، وما كنت أظن أن تجزينى بذلك ، على عتقك ، وأن وهبت لك حياتك . فإن كنت فعلت ذلك على غير علم بانتساب الغلام إلىّ فأطلقه وأطلق رجاله ، واردد عليهم أموالهم ، وقد عفوت عنك ، وإن كنت فعلته مكراً وغدراً فإنى قادم إليك ، لأنزع روحك من جسمك ، ثم قرأ أحد الكتابين على عنترة ، لأن عبارتهما واحدة ، وناولهما عنترة ، فطوى أحدهما وناوله شيبوباً وقال : هذا إلى الأسد الرهيص ، وطوى الكتاب الثانى وناوله الحذروف وقال : وهذا لزيد الخيل ، أخذ شيبوب والحذروف

الكتابين وسارا يطويان الآرض إلى بنى نبهان .

كان الأسد الرهيص قد أخذ الأموال والأسرى ورجع إلى دياره ، وهناك أمر أن يربط خميصة فى أوتاد من حديد، ويعذب العذاب الشديد، فبلغ ذلك زيد الخيل، فجاءه وقال : غبت عنا يا وزر، فأين كنت ؟ فحكى له ما جرى فى غيبته إلى أن رجع إلى الديار ، وقال : ولن أسكت عن قتل عنترة ، وهو لا بد آت إلينا فى طلب هذا الغلام الذى يزعم أنه ابنه ، وسوف أسقيه كأس حتفه ، فغضب زيد الخيل وقال : والله إن سمع عنترة ما فعلته ليأتين إليك ويقطع أجلك ، وهل يكشف عنك عار الأسر والمذلة ، أنك عجزت عن عنترة ، فلجأت إلى قوم آمنين لا صلة لهم بك ولا معاملة ، فنهبت أموالهم ، وأسرت رجالهم وغلامهم ؟ ! ! إنك لعاجز ولئيم ، فبهت وزر من شدة هذا القول ، وقال : ما أسرت هذا الغلام إلا لأنى علمت أن عنترة يتبناه ، وأنه لذلك لا يقعد عن طلبه ، فإذا جاءنى أسرته أو قتلته ، فقال زيد الخيل : إنك غارق فى أحلامك ، وستكون غداء له قبل أن يكون عشاءك ، ولن تنفعك هذه المرة شفاعة الشافعين . فقال وزر : هيهات أن تكون الأيام كلها لعنترة ، وسوف ترى ما أصبه عليه من البلاء والمحنة ، فقال زيد الخيل : أطلق هذا الغلام ورد عليه ما أخذت من أمواله ، فقال وزر : لن أطلقه حتى يأتينى عنترة ، وأجعل منه مثلا وعبرة ، فتركه زيد الخيل غاضباً وقال : سوف ترى أيكما

أهدى سبيلا وأحسن عاقبة .

وبعد أيام من قدوم وزر وصل شيبوب ، وتقدم بالكتاب إلى وزر ، وكان جالساً أمام مضربه يشرب فضلة من خمر ، ولعب السكر برأسه ، وفزع العبيد لرؤيته ، لأنهم ظنوا أن من ورائه عنترة وفرسانه ، فناوله الكتاب قائلا : هذا كتاب أخى عنترة إليك ، فلما قرأه قال : أيكتب هذا العبد الزنيم لمثلى بهذا ؟ وأمر أن يؤسر شيبوب ويحبس مقيداً ، ويعذب العذاب الأليم ، فلما رأى الخذروف ما فعله وزر بشيبوب طار بالكتاب الذى معه وناوله زيد الخيل ، وانفلت كالريح إلى عنترة ، فأخبره بما فعل وزر بشيبوب .

جعل وزر يعذب شيبوباً ويضربه ، ثم أمر نجماً عبده أن يقيم خشبة لصلبه ، وشاع خبر هذا الصلب فى الحلة ، كما بلغ زيد الخيل ووالده ، فبينما يقوم العبد نجم بما أمره به وزر ، ماجت الحلة ، واضطربت ، وأسرع المهلهل وزيد الخيل إلى ساحة الصلب ،فوجدوا الخشبة منصوبة ووجدوا شيبوباً بجوارها مكتفاً مقيداً ، فصاح زيد الخيل فى نجم عبد وزر وقال : يا عبد السوء ، أتريد أن تصلب السادة الأماجد ، وضربه بالسوط ضرباً موجعاً ، وحل شيبوباً من وثاقه ، وسلمه إلى عبده ، وأنفذه إلى بيته ، ثم سار إلى وزر ، فوجده جالساً يشرب الخمر على باب بيته ، فقال له : لعل بك جنوناً أو أصابك خبال فى هذه الأيام ، أما كفاك أن تلقى بنفسك

إلى التهلكة ، فتسعى إلى أن تهلكنا معك ؟ ! فوالله لا جاورناك بعد هذا ، فإما رحلت عنا ، وإما رحلنا عنك ، وقد أتانى كتاب من عنترة يطلب فيه أن تخلى سبيل الغلام خميصة الذى أسرته ، فما رأيك ؟ فقال : لن يكون ذلك ، فقال له : ارحل عنا غداً ، فلا ردك الله ، ولا أرانا وجهك فليس من المروءة أن نحارب عنترة ، الذى أحسن إلينا ، وعفا عنا حين قدر علينا . فقال وزر : سمعاً وطاعة ، وسأرحل من فورى ، وأمر بهدم البيوت وحزم الأمتعة ورحل من ساعته ، وتبعه أربعمائة بيت من بنى نبهان ، وما زال سائراً حتى نزل بديار بنى جديلة ، ففرحوا به ، وسألوه عما عنده ، فأخبرهم بما فعله زيد الخيل ، وأنه خشى بأس عنترة ، فقالوا : نحن معك ولا نبخل بأنفسنا وأموالنا من أجلك .

أطلق زيد الخيل شيبوباً ومنحه خلعة سنية ، وكتب إلى عنترة كتاباً ، شرح فيه ما دار بينه وبين وزر بن جابر ، وسلمه إلى شيبوب وشيعه إلى أخيه . فسار شيبوب كأنه الطير ، حتى كان بينه وبين ديار بنى عبس مسيرة يومين ، فرأى غباراً قادماً ، فوقف يستبينه ويتعرفه ، فإذا هو جمع من الفرسان ، يبلغون المائتين ، يجرى أمامهم رجل أحس شيبوب فى نفسه حنواً إليه ، وكان ذلك الرجل الخذروف ومن ورائه عنترة ، يحيط به رجاله وفرسانه ، وكان عنترة حينما بلغه الخذروف ما فعله وزر بشيبوب قد ركب فى التو والساعة ، وسار فى هؤلاء الفرسان حتى التقى بهم شيبوب ، فذهب

عن عنترة بلقاء أخيه ما كان قد اعتراه من حزن وجزع ، وسأله عما جرى فحدثه بكل ما حصل ، وناوله كتاب زيد الخيل ، فقرأه عنترة ، واستمر سائراً بجنده ، إلى ديار بنى نبهان .

وكان الملك قيس على غير علم بمسير عنترة إلى بنى نبهان ، ولما علم بمسيره هذا ثانى يوم ، جمع إخوته وبنى عمه وعشيرته ، وقال لهم : أنتم تعلمون فضل عنترة علينا ، وحمايته إيانا ، وقد سار إلى بنى نبهان ، وربما كان فى حاجة إلى معونة ونجدة ، فقال إخوته : وماذا ترى ؟ فقال : أرى أن نرسل مدداً يلحق به ، ثم التفت إلى أخيه ورقة وقال : خذ معك أخاك نوفلا ، وستمائة فارس ، وأدركوا ابن عمنا عنترة ، لتكونوا له خير نجدة ، فقالوا : سمعاً وطاعة . وساروا لساعتهم ، وأخذوا يطوون الأرض طياً ، ليدركوا عنترة فى أقرب فرصة .

* * *

ولما رحل الأسد الرهيص إلى بنى جديلة كتب إلى المنهال يستنجد به على قتال عنترة ، فكتب المنهال إليه : كفانى ما جرى لى من عنترة ، ولن أنسى فضله ومروءته ، إذ عفا عنى ، وأطلقنى من أسرى ، فاستنجد بغيرى ، فقد أصبحت لا أضمر لعنترة إلا كل محبة ووفاء . فلما قرأ وزر كتابه ، صرف النظر عنه ، وأرسل إلى ملجم بن حنظلة ، وأخيه يزيد الملقب بشارب الدماء . يستعد بهما على عنترة ، فأجاباه إلى ما طلب ، وأرسل إلى قبيلة طيئ

فسارت إليه ، وكتب إلى قبائل يعرفها فاستجابت له على بكرة أبيها ، واجتمع له من ذلك عشرون ألف فارس ، ونزلوا فى واد كثرت أشجاره وأنهاره ، وبينهم وبين جبلى أجأ وسلمى مسيرة خمسة أيام . وفرح الأسد الرهيص بهذه الجموع الكثيرة ، وبعث طلائعه إلى البر كل يوم ، وكان عددهم ثلاثمائة فارس ، وذلك مخافة أن يدهمهم عنترة على غرة .

جعل عنترة يطوى القفار حتى أشرف على الجبلين أجأ وسلمى ، فرأى طلائع الأسد الرهيص ، فقال لعروة : هؤلاء طلائع الأسد الرهيص ، ولا يعرفون أننا من بنى عبس ، وهم سائرون إلينا ، فأمهلوهم حتى يسيروا معنا ويطمئنوا إلينا ، ثم احملوا عليهم حملة واحدة ، فاستحسن عروة هذا الرأى وأعلم الفرسان إياه . ولما التقت بهم الطلائع قالوا لهم : من أى العرب أنتم ؟ فبرز إليهم مازن أخو عنترة وقال لهم : نحن نجدة إلى الأسد الرهيص وزر ابن جابر . فقالوا : أهلا وسهلا ، ونحن طلائعه وجنوده ، ثم اختلطوا بهم وساروا معهم ، ثم صاح غصوب فى مقدم الطليعة وطعنه فى صدره برمحه ، فوقع على الأرض جثة هامدة ، وصاح بعده الفرسان : يا لعبس ! يا لعدنان ! فحملوا على فرسان الطليعة ، ومزقوهم شر ممزق ، فقتلوا أكثرهم وأسروا بعضهم ، وفر هارباً قليل منهم ، وكان الأسد الرهيص قد طرق سمعه ضجة حرب وصياح قتال ، فسار بجنوده حتى لقيه الهاربون من طلائعه ، وحكوا له ما جرى لهم ، فاستمر سائراً بجيوشه ، حتى تلاقت

الصفوف ، وشهرت السيوف ، وانطبق بعضهم على بعض ، وصاح الموت فى أعداء بنى عبس صيحته ، وفعل فيهم عنترة فعلته ، ولم تزل السيوف تقطع ، والدماء تسيل وتنزف ، حتى أدبر النهار ، وأطل عليهم ظلام الليل فتحاجز الفريقان .

وكان بنو عبس قد تعبوا وكلّوا من شدة الضرب ، وكثرة الأعداء من العرب ، وقد أحاطوا بهم من كل جانب ، وظنوا ألا ملجأ منهم ، ولا مفر من سيوفهم ، وفى الصباح نظر عنترة إليهم ، فوجدهم قد فتر نشاطهم وخمدت حميتهم ، واستسلموا إلى اليأس والقنوط ، فاستحث عنترة هممهم ، وأيقظ راقد حميتهم ، وقال لهم : احموا ظهرى ، وأنا أمزق أعداءكم ، وأسقيهم كئوس الردى ، فزحفوا على الأعداء بقلوب ثابتة قوية ، وحملوا عليهم حملة منكرة ، فكسروا حدة الأعداء ، وردوهم إلى الوراء ، ولما انقضى النهار كانوا قد شعروا بالضيق ، وظنوا أنهم فقدوا للنجاة والسلامة كل طريق .

وبينما هم فى شدة القتال طلعت عليهم غبرة ، وانكشفت فى الحال عن ستمائة فارس ينادون : يالعبس ! يالعدنان ! ثم حملوا على الأعداء ، فقويت بهم قلوبهم ، ورجع إليهم ثباتهم ، وحضر غائب رجائهم ، فخاضوا المعركة بعزائم تصهر الحديد ، وقتل عنترة فى هذا اليوم ألفا ومائتى قتيل ، وأقبل الليل ، ونزلت كل طائفة فى منازلها ، وشكر عنترة ورقة

وأخاه نوفلا ، واجتمع بنو طيئ بالأسد الرهيص وقالوا : لقد أحضرتنا للهلاك والأذى ، ونحن ما لنا طاقة بقتال عنترة ، وقد رأيت ما فعله وهو فى مائتى فارس ، فكيف يكون حالنا معه وقد أصبح فى ثمانمائة ، فقال لهم : والله يابنى عمى ، لولا هذه النجدة ما كنت أبقيت منهم باقية ، ولكن فى الصباح سأبرز إلى عنترة ، فإن قتلته أو أسرته ذلت بنو عبس من بعده ، فما هم من غيره إلا بهائم رتع ، فقويت قلوب بنى طيئ بهذا القول المعسول وباتوا ينتظرون ما سيكون .

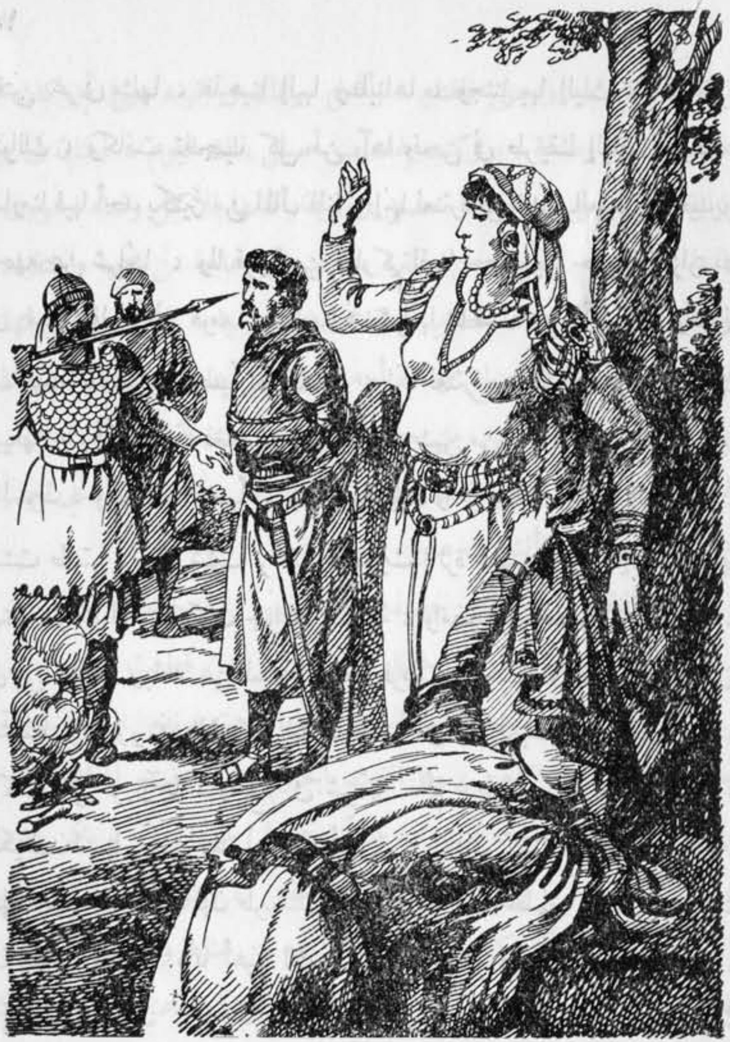
وفى الصباح برز الأسد الرهيص ، وجال فى الميدان وقال : لقد سئمنا سفك دماء الفرسان ، والأمر بينى وبين عنترة وحده ، فليبرز إلىّ ، ليكون السيف حكماً بينى وبينه ، فبرز إليه عنترة لساعته ، وحلف ألا يفارقه ، حتى تخرج روحه ، وحمل عليه حملة العطب والخطر ، فحارت من الأسد الرهيص الفكر ، وزاغ منه البصر ، ورام الهرب من بين يديه ، فطعنه بالرمح بين كتفيه ، فارتمى عن جواده ، فاقداً رشده وصوابه ، فأسرع إليه جرير وشيبوب فأوثقا أطرافه ، وعنترة واقف بجانبه ، ورأى بنو طيئ وجموعه مصيره فلاذوا بالهرب والفرار ، واسترد بنو عبس الأسرى من ذهل وشيبان وفيهم الغلام خميصة ، وغنموا منهم مغانم كثيرة ، وعادوا إلى ديارهم ظافرين ، ومعهم الأسد الرهيص محبوساً فى قيوده وأغلاله . أما عبده نجم فإنه رحل بزوجته ريحانة إلى أخيها عمرو فى بنى زبيد . وسار عنترة فى

جموعه المنتصرة إلى دياره ، وما كاد يصل إليها حتى أذّن البشير فيها بقدومه غانماً مظفراً ، فاستقبله الملك قيس ورجال العشيرة ونساؤها استقبالا حافلا باهراً . وباتوا تلك الليلة ، وفى غدها أقام الملك قيس وليمة شاملة فرحاً بعودة عنترة فائزاً منصوراً . وفى اليوم الرابع أمر عنترة أخاه شيبوبا أن يحضر الأسد الرهيص إليه ، فلما أحضره أراد أن يضرب عنقه ، وإذا بنبأ جاء عنترة ، أن قدم عمرو بن معد يكرب فى خمسين فارساً ومعه أخته ريحانة ، فقام واستقبله ، وأجلسه وأكرمه ، فقال عمرو : يا حامية بنى عبس ، لا تحسبن أنى أتيتك هذه المرة ، لأشفع للأسد الرهيص عندك ، فما أتيتك إلا لأشهد مصرعه ، وقتله وصلبه ، ولكن ريحانة استجارت بعبلة وتعلقت بأذيالها فقالت : ما لى ولا لأحد غيرى سبيل إلى خلاصه من يد عنترة هذه المرة ، فأريحى نفسك واسكتى ، فإن زوجك لم يترك فى قلب إنسان ذرة من الإشفاق عليه . وقال عنترة لعمرو بن معد يكرب : يا عمرو ، إكراماً لك لا أقتله ، ولكنى سأكحل عينيه وأطلقه ، ثم أمر شيبوباً أن يضرم النار بين يديه ، فلما أضرمها أحمى عنترة سنان رمحه وكحل بها عينيه ، فأصبح أعمى ، ثم سلمه إلى عمرو ، ورد عليه أمواله وقال له : يا وزر ، لو كنت قتلتك لأرحتك من نفسك ، فقال الأسد الرهيص : اقتلنى وأرحنى ، فإنى سأعيش سائلا ، بعد أن كنت مسئولا ، فقال عنترة ولك عندى كل سنة مائتا ناقة ، وخمسمائة من الغنم ، إن لم تأتنى لتأخذها

أنفذتها إليك ، فشكر فرسان العرب لعنترة هذا الإنعام الجميل الجزيل . ورجع عمرو وفرسانه والأسد الرهيص وزوجته ، وفى أثناء سيرهم قال عمرو للأسد الرهيص : أما نهيتك يا وزر عن غيك وغدرك ؟ ! فقال : وما دمت حياً فلن أقلع عن أخذ ثأرى ، ولا أنفك عن طلبه ، حتى أقتل عنترة. فأيقن عمرو أنه ليس موضعاً للصنيعة والإحسان وقال له : إذا كنت لم تفلح وأنت بصير ، فكيف تفلح وأنت أعمى ؟ ! ثم تركه ومضى إلى دياره ، أما وزر فإنه سار إلى ديار بنى نبهان ، ونزل بعيداً عنها ، حتى لا يشمت فيه زيد الخيل وأبوه المهال .

٢

زادت مكانة عنترة وهيبته فى نفوس العرب أجمعين قريبهم وبعيدهم ، وبعد أيام من فوزه هذا أقام وليمة حضرها سادات بنى عبس وأولاده وأعمامه وأولادهم ، وعروة ورجاله ، وكرام الأمراء ، وهنئ جميعهم فيها بالطعام والشراب ، وبالإماء يضربن بالدفوف والمزاهر ، وبينما هم فى لذة من طربهم هذا جاءه شيبوب ومعه ثلاثة عبيد من « سلالى الخيل » . فقال عنترة : ماذا حدث ؟ فقال العبيد : نحن من صعاليك العرب و « سلالى الخيل » . بلغنا أن رجلا اسمه وائل بن ذهل فى بنى مرة ، عنده حجرة ما



عنترة يضع سنان رمحه فى عين الأسد الرهيص وعبلة منزعجة

اقتنى عربى مثلها ، فذهبنا إليها وسلبناها ، وجئنا بها إليك ، لنحظى بنوالك ، وكانت تعجب كل من رآها ونحن فى طريقنا إليك ، وكلما ساومنا فيها أحد بكثير من المال قلنا : إنها لعنترة بن شداد العبسى ، فيدير وجهه عن شرائها ، ولما قربنا من دياركم لقينا حصن بن حذيفة الفزارى ، فى خمسين فارساً من قومه ، فساومنا فى شرائها بما نشاء من الأموال ، وأنذرنا إن أبينا أخذها منا غصباً ، فقلنا له : إنها لعنترة بن شداد ، وليس لنا أن نبيعها على أية حال ، فغضب علينا وقال : بئس من ذكرتم ، وأوجعنا ضرباً بالسوط ، ونهبها منا غصباً ، وقد أتينا إليك وأخبرناك ، والأمر إليك ، إن شئت طلبتها ، وإن شئت تركتها ، فثارت ثائرة غضبه ، ودعا إليه غصوباً ابنه ، وقال له : اركب جوادك الساعة ، وامض إلى حصن بن حذيفة ، فى بنى فزارة ، وبلغه عن لسانى : لقد فرطت فى جنب أبى ، وركبت متن الشطط والغرور فى الإساءة إليه ، فقد أتانى العبيد بحجرة من بنى مرة ، وكان كل من رآها ، وطمع فى شرائها ، ثم عرف أنها لى أعرض عنها . فكيف تنهبها منهم وقد أعلموك أنها لى ؟ ! فإن كنت قد أردت أخذها على سبيل الهدية ، فإن طريقتك فى أخذها خطأ عظيم ، والرأى فى ذلك أن تطلبها منى ، وأنا أهبها لك مختاراً كريماً ، وإن أردت التحدى ، وإظهار سطوتك ، واحتقار غيرك ، فبئس ما فعلت ، وقد بلغنى أنك أردت الثانية لا الأولى ، فأرسل الحجرة إلينا من فورك . ثم قال لغصوب

ابنه : وإن تمرد وعصى فاقتله ، وأعمل سيفك فى قومه حتى أدركك ، فقال : سمعا وطاعة . وركب غصوب أصيل ذلك اليوم ، فكان فى بنى فزارة عند الغروب ، وكان حصن فى وليمة أقامها للأكل وغناء الجوارى ، فلما بلغه قدوم غصوب بن عنترة ، نهض فى جماعة من صحبه واستقبله ، وأجلسه بجواره ، وكان غصوب عاقلا ، خبيراً بسياسة الأمور وتصريفها ، فرأى من الحكمة ألا يبلغ رسالة أبيه ، والخمر عابثة برءوسهم ، وانتظر معهم حتى يفيق حصن بن حذيفة من سكره ، فقال حصن للجارية المغنية : أنشدينا الشعر الذى قاله قيس بن زهير ، حينما قتل أبى حذيفة على جفر الهباء ، فأنشدت هذين البيتين :

شفيت النفس من قتلى حذيفه   وسيفى من حذيفة قد شفانى
فإن أك قد شفيت بهم غليلى   فإنى قد قطعت بهم بنانى

وجعلت تغنى وتردد هذين البيتين ، فى صوت مرتفع ، ثم غنت بقية ما قاله قيس من الشعر ، وما انتهت الجارية حتى ضج المكان بالنواح والبكاء ، وكان غصوب لا يعرف شيئاً عن قتل حذيفة لأنه لم يكن قد ولد وخلق ، فقال : يا قوم ، ذلك أمر قد مضى ، وطوت عليه الأيام ثوب النسيان ، فدعوا بكاءكم ، وخذوا ما أنتم فيه من هناءة وطرب . فجعل بنو فزارة يمسحون أطراف حصن بن حذيفة حتى سكت عنه البكاء ، ولكن النار فى قلبه مضطرمة ، حزناً على أبيه ، ولما انتهت الوليمة وثب حصن

وخرج من المضرب ، وأمر ألا يتبعه أحد من عبيده ، ولكنه أخذ معه عبدا اسمه سالم ، وغصوب جالس فى مكانه ، ينتظر عودته ، وهو مطمئن فرح لمكانة أبيه فى نفوس العرب ، وأمر حصن عبده ، أن يأتيه برمحه القصير ، والعبد لا يعلم شيئاً مما يريد أن يفعله سيده ، فأخذ منه الرمح وسار به إلى المضرب من خلف غصوب وهو جالس ، ثم طعن غصوباً فى ظهره برمحه طعنة قوية وهو يقول : ياللأخذ بالثأر ! فهوى غصوب على الأرض مقتولا ، ومضى حصن إلى داره ، وماج الناس ، وارتفعت الصيحات ، وتبدلت الأفراح أتراحاً وأحزاناً ، وسمع سنان بن حارثة بقتل غصوب فلطم وجهه وقال : ما أعظمها مصيبة ! ! وأضرمها ناراً ! ! لقد حل ببنى فزارة الدمار والبوار ؛ وذهب إلى المضرب فرأى غصوباً ملقى على الأرض لا حراك به ، فقال : ارحلوا يا بنى فزارة من الديار ، فما بينكم وبين الموت إلا أن يصل إلى عنترة ، نبأ قتل ابنه ، ودخل سنان على حصن فى بيته ، فوجده لا يعى شيئاً من سكره ، فأركبه بعيراً ، ورحل مع القوم الذين كانوا قد قوضوا خيامهم وحملوا أمتعتهم على جمالهم . وتسابقوا فى الرحيل والهرب ، يطلبون ملجأ أو ملاذاً يعصمهم من عنترة .

ولما طلع النهار ولم يرجع غصوب إلى أبيه ، وما جاءه عنه خبر ، أرسل أخاه شيبوباً يتبين أمره ، فجد فى المسير ، حتى أقبل على الديار ، فوجد غصوباً مرمياً فى القفار ، وما وجد من بنى فزارة دياراً ولا نافخ نار ،

فاتقد صدره حزناً على ابن أخيه ، ورجع من فوره إلى عنترة ، ونقل إليه ما رآه ووجده ، فنزل عليه نبأ قتل ابنه نزول الصاعقة ، وركب فى الحال جواده ، وسار طالباً بنى فزارة ، فلما وصل إليها لم يجد أحداً فيها ، ووجد ابنه مرميا مقتولا ، فأغمى عليه من هول الصدمة ، ولما أفاق حمله على جواده ، وأحكم رباطه ، ورجع به إلى دياره ، وتلقته النساء بلطم الخدود وشق الجيوب والصراخ والعويل ، واستقبله الملك قيس وإخوته وأكابر القبيلة ورجالها ماشين على أقدامهم ، دامية قلوبهم ، باكية أعينهم ، ولكن بنى زياد كانوا فى شماتة خفية ، وفرح كامن فى الصدور . ثم وضع على جسم ابنه ما يقيه التعفن والانحلال مدة طويلة ، وحلف ألا يواريه التراب حتى يجعل من دماء بنى فزارة سيلا يجرى ؛ ثم أذن فى الناس وأعلن أنه سائر إليهم ، ومن كانت له رغبة فى المعونة ، فليبادر بالمسير معه ، وحمل ابنه غصوبا على جمل ومضى به إلى بنى فزارة ، وفرسان بنى عبس تتقاطر من خلفه ومن حوله .

* * *

أما بنو فزارة فما زالوا سائرين هاربين حتى طلع عليهم النهار ، فاجتمع أكابرهم وتشاوروا : أين يذهبون ، وإلى أى ملك يلجئون ويلوذون ، فأجمعوا رأيهم على أن يسيروا إلى قيس بن مسعود ملك بنى شيبان ، فلما وصلوا إليه رحب بهم وأكرمهم ، ثم سألهم : مالى أراكم نازحين بأموالكم ونسائكم

وعيالكم ؟ ! فقال : حصن بن حذيفة : لقد قتلت غصوب بن عنترة ، وأنا فى سورة سكر شديدة ، وقد أتيناك لتحمينا ، وأنا أعطى عنترة فى ابنه عشر ديات ، فغضب الملك قيس بن مسعود وقال : لعنك الله وأخزاك ! أتقتل ابن حاميتكم ، وتأتى هذا المنكر فى دياركم ، ثم تأتينى لأحميكم ؟ ! لا رعاك الله ولا وقاك ! قم من قدامى ، والله لو كان ابنى بسطام حاضراً هنا لقطع بسيفه رقابكم ، اخرجوا من ديارى فلعنكم الله، ولعن من يحميكم. وطردهم قيس طرداً شنيعاً ، فحاروا فى أمرهم ، ثم وجدوا ألا معصم لهم إلا أن يذهبوا إلى أرض العراق ، لينزلوا على الملك الأسود ، ويخبروه بما جرى ، ويستجيروا به ، وصارت وجهتهم أرض العراق ، فمضوا سائرين إليها .

جد عنترة فى المسير إلى بنى شيبان ، حتى وصل إليها ، فاستقبله الملك قيس ، وعزاه فى ابنه ، وبلغه ما فعله بهم ، وأنهم بعد أن طردهم ، اتجهوا إلى أرض العراق ، لينزلوا على الملك الأسود ، وأنه ليس بينه وبينهم الآن إلا مسيرة يوم وليلة . فنادى عنترة فيمن معه : أن انشطوا فى سيركم ، حتى ندركهم ، ثم شكر للملك قيس بن مسعود وودعه ، وجعلوا يطوون الربا والبطاح ، إلى أن أدركوا بنى فزارة وقد أجهدهم المسير . فسمعوا من خلفهم صيحات الأبطال ، والنذر بالهلاك والنكال ، فقال سنان بن أبى حارثة ، لحصن بن حذيفة : قد أتاك الويل ، والتفت إلى بنى فزارة وقال : قد جاءكم عنترة وبنو عبس ، ونجاتكم فى سيوفكم ، والدفاع عن أنفسكم ،

إن كان الله قد كتب النجاة لكم ، فجردوا سيوفهم ، يدفعون بها الموت عن نفوسهم ، وأحاط بهم بنو عبس ، ولكن عنترة حين رأى حصن بن حذيفة صاح صيحة عالية ، وقع بعدها مغشياً عليه . فأمر الملك قيس عبيده أن قيدوه ، واقعدوا بجواره أنتم وابنه ميسرة ، فإن أفاق من غشيته فقولوا له : ما فعل هذا بك إلا الملك قيس ، ووصانا ألا نقرب من قيودك حتى يجىء إليك ، ويفك هو نفسه تلك القيود ، ففعلوا ما أمرهم به ، ثم التفت قيس بن زهير إلى بنى عبس وقال : دونكم الحرب والقتال ، وعسى أن يفيق عنترة فيجدكم قد بلغتم من الأعداء كل منال . فانقض الرجال على الرجال ، واستعرت نار الحرب والقتال ، ودارت رحا الحرب تعرك الآجال ، وتناثرت الرءوس ، وأخذ القلق بالنفوس ، حتى أقبل الظلام ، ولجأت كل طائفة إلى منازلها ، وقد ظهر بنو فزارة على بنى عبس ، لخلو المعركة من عنترة ، وابنه ميسرة ، فباتوا طامعين فيهم ، ظافرين عليهم . وفى الصباح استؤنف القتال بين الفريقين ، وكان بنو فزارة أكثر نشاطاً وأثبت جناناً ، فدكوا بنى عبس دكة قاسية ، واضطر ميسرة أن يترك أباه ويخوض المعركة فكال للأعداء كيلا ، وأذاقهم ضرباً وبيلا ، وأفاق عنترة إذ ذاك من غشيته ، فقال للعبد : من فعل هذا بعنترة ؟ فقالوا : فعله الملك قيس ، ووصانا أن نحضره إليك إذا صحوت ، ليفك هو نفسه القيود ، ويلقاك بما تريد ، وفر بعضهم إلى الملك فأخبره ، فجاءه لساعته،

وقد فرح به ، وفكه من قيوده ، وأخبره بما جرى لفرسانه ، فركب جواده ، وقفز إلى الصفوف ، ونادى فيهم : أتاكم عنترة بن شداد ، وسأجعلكم أشلاء فوق الرماد ، إن لم تسلمونى قاتل ابنى ، لأطفىء بمقتله جذوة حزنى ، فارتاع بنو فزارة ، لرؤيتهم عنترة ، وخار عزمهم ، ولعبت قلوبهم فى صدورهم ، واشتبك الفريقان ، فجدل عنترة فرسانهم ، وصبغ الأرض بدمائهم ، وأغرقهم فى الضيق والوبال إلى أذقانهم ، وجرعهم من المنايا الصاب والعلقم ، وحطم من بنيان صفوفهم ما حطم ، وجاء الليل ، وتحاجز الفريقان ، وبنو فزارة موقنون بفنائهم ، وتقلص ظلهم ، فباتوا يتشاورون فيما يفعلون . وأجمعوا على أن يفروا هاربين خفية فى ظلام الليل ، وما لبثوا أن رحلوا ، وابتلعتهم الصحراء

أما بنو عبس فقد باتوا فرحين ، ثم هبوا فى الصباح ، وشمروا عن سواعدهم للحرب والكفاح ، وجروا إلى ميدان القتال ، وثقتهم فى النصر المؤزر ترقرق فى وجوههم ، وتنبض بها قلوبهم ، وتلمع فى صفحات رماحهم وسيوفهم ، ولكن بهتوا حين لم يجدوا لبنى فزارة أثراً ، فقال عنترة لا غناء لنا فى متابعة البقية الهاربة ، وكان قد أسر منهم ألفا وستمائة ، فأمر ابنه ميسرة أن يوارى أخاه التراب ، ثم جلس على قبره وقال : هات لى الأسرى من بنى فزارة ، فلما أحضرهم بين يديه ، أخذ يقطع رقابهم فارساً فى إثر فارس ، حتى قطع رقاب ألف فارس ، وتقدم ميسرة ، فذبح على

قبر أخيه ثلاثمائة ، وتقدم الملك قيس وقال : هب لى من بقى من الفرسان وكفى ما حل ببنى فزارة من الهوان ، وهم مع ذلك أبناء عمومتنا ، فقال عنترة : لا تهمنى تلك البقية ، فلن تطفأ نار حسرتى إلا بقتل حصن بن حذيفة ، قد وهبتهم لك أيها الملك الكريم ، فحل وثاقهم ، ورد عليهم خيلهم وأسلحتهم ، وقال : امضوا إلى أهليكم آمنين ، فشكروهم وانطلقوا مسرعين . أما عنترة وبنو عبس فقد عادوا إلى أوطانهم ، وأقام عنترة لابنه مأتماً دام عشرة أيام ، ثم عكف فى بيت أحزانه .

٣

أما بنو فزارة الهاربون فإنهم دأبوا على المسير حتى وصلوا أرض الحيرة ، فصاح الرجال ورفع النساء والعيال أصواتهم بالبكاء ، وبلغ ذلك الملك الأسود ، فطلع إليهم وسألهم : ما حالكم ؟ ! وما أبكاكم ؟ فقالوا : أفنى بنو عبس رجالنا ، ونهبوا أموالنا فقال : وماذا جرى بينكم وبينهم حتى هجرتم أوطانكم على تلك الحال السيئة ؟ فقال حصن بن حذيفة : قتلت غصوب بن عنترة ، وكنت إذ ذاك فى حدة السكر ونشوته ، لا أعرف من أمامى ، ولا أعى ما يقال لى ، ورحلنا إلى بنى شيبان نلوذ بهم من عنترة ، فأغلقوا فى وجوهنا أبوابهم وردونا خائبين فسرنا إليك طائعين ، وأدركنا

عنترة فى الطريق ، فقتل منا كثيرين ، وأسر ألفاً وستمائة ، ونهب أموالنا ، ثم انسللنا فى ظلام وجئنا إليك راجين منك النصر والحماية ، والأخذ بالثأر فرق قلب الملك الأسود وقال : انزلوا عندى ، فقد حميتكم ، وسوف آخذ ثأركم ، وأرد عليكم أسراكم ، وأجعلكم فى دياركم آمنين . ثم أنزلهم فى أحسن البيوت ، وقرر لهم ما يكفيهم من الزاد والطعام ، وبعد يومين من نزول بنى فزارة أقبل عليهم الأسرى الثلاثمائة ، الذين شفع لهم الملك قيس وأخبروهم بما جرى من ذبح الفرسان على قبر غصوب ، وقالوا : ولولا الملك قيس وشفاعته لنا لذبحنا معهم ، فنهض حصن بن حذيفة إلى الملك الأسود ، وشكا إليه فى ذلة وانكسار ما فعله عنترة بفرسانه من ذبحهم على قبر ابنه .

فقال الملك الأسود : أحق أنه قتل هذا العدد منكم فى يوم واحد ؟ !

فقال : نعم ، وحياتك ، ولولا شفاعة الملك قيس بن زهير لذبح الثلاثمائة الباقين ، فقال الملك الأسود : لن أقعد عن طلبه ، ولن أتركه فى طغيانه وتمرده ، ولا بدّ من أن أشفى منه غليل صدرى ، وأريحكم من شرّه ونكده ، ولكنى أراكم مخطئين ؛ لأنكم فتحتم على أنفسكم أبواب الشر بتعرضكم لهذا العبد ، الذى ما هو إلا مارد . ثم التفت إلى وزيره عمر بن نفيلة وقال له : اكتب إلى الملك قيس بن زهير أن يبعث إلينا عنترة وابنه ميسرة وإلا قتلته ، أو سرت إليه بجيوش تسحقه وقبيلته ، فكتب الوزير الكتاب وبعث به رسولا من بنى شيبان . فلما أخذ الملك قيس منه الكتاب وقرأه ملكه

الخوف من الملك الأسود ، واضطرب أمره ، وأغلقت فى وجهه مذاهب الرأى ، لأنه بين أمرين أحلاهما صاب وعلقم ، وأخبر إخوته بما فى كتاب الملك الأسود ، ووصاهم ألا يذيعوا سره ، ثم قال : وقد عزمت على أن أسقى عنترة خمراً حتى يسكر ويفقد وعيه ، ثم أكتفه وأرسله وابنه إلى الملك الأسود ، وهناك سيلقيهما فى السجن سنة أو أكثر أو أقل ، ولعل السجن يخفف من كبريائه ، وحينئذ يذل للملك الأسود ، فيعفو عنه وعن ابنه ويخلى سبيلهما فقالوا له : افعل ما شئت .

عكف عنترة فى بيت أحزانه ، لا يدرى شيئاً مما يجرى حوله ، وذات ليلة هاجت أحزانه ، على غصوب ابنه ، فلبث ساهراً لا يطرق النوم عينه ، ولما انتصف الليل جاءه ورقة بن زهير ، وأخبره بما عزم عليه أخوه الملك قيس . ووصاه أن يأخذ حذره ، وأن يكتم هذا السر فى صدره ، فشكره وقال : لئن تصدى لى الملك الأسود لأجعلنه عبرة لمن يعتبر ، وأما الملك قيس فسوف يرى من الرابح فينا ومن الخاسر ، ثم ودعه ورقة ورجع ولم يشعر به أحد .

أخذ الملك قيس فى تنفيذ ما دبر ، فأرسل إلى عنترة ، ليخرج للصيد والقنص معه ، فلبى عنترة دعوته ، وأخذ معه ابنه ميسرة ، وعشرة من فرسانه ، فأوغل جميعهم فى الأودية ، وجعلوا يصطادون حتى أدبر النهار ، ثم رجعوا إلى الديار ، ولم يجد الملك فرصة سانحة ، لأن عنترة لم يكن

وحده ، فقال له : أنت فى ضيافتنا غداة غد ، لتكمل بوجودك أفراحنا ، فقال عنترة : يسرنى أن أكون بجوارك فى كل وقت ، وسأكون عندك غداة الغد . وذهب كل منهما إلى بيته ، وظن الملك قيس أنه غداً سيبلغ فيه مرامه ومقصده . أما عنترة فإنه بعد أن استقر فى بيته أحضر إليه ابنه ميسرة وسبيع اليمن ، وعروة بن الورد ، وكان ذلك فى ستر من ظلام الليل ، فأفضى إليهم بما دبر الملك قيس له ، ووصاهم أن يكونوا فى صباح الغد عند الملك ، وفى غاية اليقظة والحذر ، فقال عروة : ولمَ تصبر على هذا الغدر الآثم ؟ وأرى أن نرحل من هذه الديار ، ونترك بأهلها اللئام الدمار والبوار . فقال عنترة : لا بد أن نطاولهم حتى يبدءونا بالشر ، وبعد ذلك نفعل بهم ما كتب عليهم وقدّر . ثم انصرفوا إلى بيوتهم خفية ، وظلام الليل يسترهم . وفى الصباح أقبل على عنترة فى بيته ، ميسرة وسبيع وعروة ، فما كادوا يجلسون حتى أقبل الرسول فقال لعنترة : إن الملك يدعوك إلى ضيافته ، لتزداد بك مسرته ، فقال عنترة : ارجع إليه وبلغه أنى قادم إليه الساعة . ثم نهض عنترة ومن معه ، ولبسوا دروعهم تحت ثيابهم ، وساروا إلى الملك ينظرون ماذا يفعل . وكان الملك قد أعد سرادقه ، وفرش البسط ، وصف النمارق ، وأحضر الخمر وآلات الطرب ، وأعد عشرين عبدا ، وقال لهم : إذ رأيتم عنترة قد سكر من الخمر وفقد رشده ووعيه ، فاهجموا عليه ، وعلى ميسرة ابنه ، وكتفوهما ، وبينما الملك قيس ينتظر عنترة إذ أقبل

عليه ، ومعه ميسرة وسبيع وعروة ، فاستقبلهم استقبالا كريماً ، وأجلسهم فى صدر السرادق ، وجلس عنترة بين صحبه ، وسل سيفه الظامئ ووضعه على ركبتيه ، فقال الملك قيس : لم هذا يا أبا الفوارس ، وهذه جلسة شرب وطرب ؟! فقال عنترة : لا أحب إلا أن أكون كما رأيت ، فضحك الملك وأمر بالطعام فحضر وأكلوا ، ثم دارت عليهم كئوس الخمر فشربوا وكان الملك يميل إلى عنترة ويسقيه حتى سكر ، وظهرت آثار السكر فى عجمة لسانه ، فانتصب الملك واقفاً ، — وكان هذا رمزاً للعبيد ، وأمراً منه بتنفيذ ما وصاهم به — ورأى عنترة العبيد مقبلين عليه بسيوفهم ، فوقف فى سرعة ، وضرب أولهم بسيفه ، فأطاح رأسه وكذلك فعل بالثانى والثالث والرابع والخامس ، فلما رأى الملك قيس فشل خطته ولى من السرادق هارباً ، وانقض ميسرة وسبيع وعروة على بقية العبيد بسيوفهم ففروا من وجوههم هاربين . ثم رجعوا إلى منازلهم ولم يمض غير ساعة من الزمن حتى كانوا هم وأتباعهم قد هدموا بيوتهم وحزموا أمتعتهم وساقوا أموالهم ورحلوا من تلك الديار ، وكانوا مائتين وخمسين فارساً ، وكان بنو عبس وبنو زياد فى عجب مما يفعلون .

وكان الملك حين هرب أوى إلى بيته ، وجعل يعض على يديه ندماً وحسرة ، ولما بلغه أن عنترة يهم بالرحيل من الديار ، ركب وذهب إليه فى الحال ، وقال له : يابن العم ، لماذا هجرت ديارنا ، ورحلت عنا ؟!

فقال عنترة : عجباً لك ! ما المسئول عن ذلك بأعلم من سائله ! فغطى الملك وجوم حائر ، ثم قال عنترة : لو أطلعتنى على كتاب الملك الأسود لأرحتك من الإجابة ، وباعدت بينك وبين ورطتك هذه الأليمة المخزية ، وإذا كنت قد خفت منه فلمَ لم تدعه لى ، وكنت أريتك كيف يحترمك ويخشاك ؟ ولكن ما قدر كان ، وهأنذا قد رحلت من ديارك ، وتركت لك أرضك ؛ ثم لوى عنان جواده وتركه ، ولما طال بهم المسير قال عنترة لأخيه شيبوب : انزل بنا فى مكان تختاره ، ويكون كثير الأشجار غزير المياه ، فقال شيبوب : أرى هذا المكان عند صديقك عامر بن الطفيل ، فقال عنترة : لا بأس فى ذلك ! ! وجعلوا يقطعون القفار حتى وصلوا إلى منازل بنى عامر ، فتلقاهم ابن الطفيل وجماعة من رفقائه ، وفرحوا بهم ، وأقاموا فى ديارهم آمنين مستريحين .

* * *

كانت إجابة الملك قيس إلى الملك الأسود أن عنترة قد هجر الأوطان ورحل من الديار ، ولا نعرف له منزلا ولا مقرًّا ، فبعث الأسود إليه ثانياً أن ابحثوا عنه ، واعرفوا منزله ، حتى أسير إليه ، وأقضى عليه ، فحار وثقل عليه الأمر ، ودعا بالربيع بن زياد وأخبره ثم قال : كنت أود أن نعرف منزله ومقامه ، فقال الربيع : أرسل فارسين يبحثان عنه فى بنى هوازن وبنى عامر ، ويغلب على ظنى أنه فى بنى عامر ، فإن وجداه هناك رجعا إلينا

وأخبرانا ، فأحضر الملك فارسين من بنى عبس وقال لهما : امضيا إلى بنى عامر ، وائتيانى بخبر عنترة ، وأين نزل وأقام . فامتلأت صدور الفارسين غيظاً مما فعله الملك والربيع ، لأنهما يعرفان فضل عنترة على بنى عبس ولا يجحدانه ، واستنكرا أن يعينا عليه أعداءه وحاسديه ، واتفقا أن يفضيا إليه بكل شىء إن وجداه ، ولما وصلا إلى بنى عامر لقيهما فارس على جواد كريم ، فسألاه : أين عنترة ؟ وأين نزل ؟ فقال لهما : وماذا تريدان من عنترة ؟ فقالا نحن من بنى عبس ، وعندنا له حاجة تهمه ، فقال : إنه بجانب تلك الربوة — وأشار إليها بيده — فمضيا إليها ، ووجدا عنترة ، ومن معه من أصحابه وعشيرته ، قد أقاموا بيوتهم حول الغدران والمناهل ، فتقدما إليه ، وقبلا يديه ، وعرفهما عنترة فأحسن لقاءهما ، وسألهما : أين تذهبان ؟ فأطلعاه على حقيقة الخبر ، فضحك عنترة وابتسم ، وقال : أما أنتما فلكما الشكر وخير الجزاء ، وأما الملك قيس ، فما أنا بمهتم به ، ولا بما يفعله ، وسوف يندم إذا حزبه الأمر ، وأحدق به الخطر ، فارجعا إليه وأخبراه بما وجدتما ، ولا تكتما عنه شيئاً ، فرجعا إلى الملك قيس وقالا : إن عنترة نازل بأرض بنى عامر ، وقد استقر به مقامه ، واطمأن فؤاده ، لا يخامره فزع من أحد ، قرُبَ أو بعد ، فكتب قيس إلى الأسود وقال : إن عنترة قد اتخذ أرض بنى عامر مقاماً له ، وهو على بئر معاوية وماء النظيم ، وفى بسطة من العيش وعز مقيم ، ورجع رسول الأسود إليه ، ومعه كتاب قيس

ابن زهير فسلمه إليه ، وكان حصن بن حذيفة وسنان بن أبى حارثة حاضرين لديه ، فقرأه أمامهما ، وكان فرحهما عظيما ، حين عرفا أن بنى عبس غضبوا على عنترة ، وتنكروا له ، حتّى أخرجوه من ديارهم ، وطردوه من أرضهم ،

عرض الأسود الكتاب على وزيره عمربن نفيلة ، ليبدى رأيه فيما يفعله فقال الوزير : أرى أن تكتب إلى قيس وأصحابه بالحضور لديك ، ثم تصلح بينهم وبين بنى فزارة ، وأن ترجئ أمر عنترة إلى وقت آخر . فقال ذلك أقوم وأسلم ، وكتب الكتاب وبعث به رسوله إلى الملك قيس ، فلما دخل عليه سلمه إليه ، فقرأه على إخوته والربيع بن زياد ، وكانوا إذ ذاك حاضرين ، ثم قال : أشيروا علىّ بما ترون ، فقالوا : ليس أصلح لنا من المسير إليه ، فرضى بما أشاروا ، وخاف على الحلة أخاه جندلا فى خمسمائة فارس لحماية العيال والأموال ، ورحل هو فى بقية الرجال إلى الملك الأسود فى الحيرة ، وفى أثناء الطريق قال الملك قيس لإخوته والربيع بن زياد : ما رأيكم إذا طلب منى الأسود أن أزوجه من المتجردة ، زوجة أخيه النعمان ؟ فابتهج الربيع وقال : ذلك ما كنا نبغى ، وليت هذا الأمر قد خطر بباله ، حينئذ يكون الله قد عوضك من النعمان ، وبلغت مرامك فى عنترة وأمثال عنترة فاحرص على أن تلبى رغبته فى فرح وغبطة ، وما زالوا فى سيرهم جادين حتّى دخلوا الحيرة ، وبلغ الأسود نبأ قدومهم ، فاستقبلهم فى

حاشيته ، وجماعة من جنده ، وأنزلهم عنده منزلا كريماً ، ثم أصلح بينهم وبين بنى فزارة ، حتّى كانوا إخواناً متحابين. ثم قال لهم : أما عنترة ذلك العبد الزنيم فدعوه لى ، فإنى بقتله وقتل رجاله زعيم ، فقالوا : دام ملكك ، وعز سلطانك ، ولا عدمنا معونتك . وانفض المجلس ، وأنزل الملك قيساً وإخوته والربيع بن زياد فى دار بجانب قصره أعدها لهم ، ولما خلا مجلس الأسود ، ولم يبق فيه أحد ، أحضر إليه وزيره ، عمربن نفيلة ، وقال له : قد عزمت على أن أخطب لنفسى المتجردة بنت زهير ، وزوجة أخى النعمان ، وأريد رأيك ومعونتك ، فقال الوزير : رأيت كل خير ، ودع هذا الأمر لى ، وسينتهى بما يرضيك ، ثم قام الوزير إلى داره ، وأحضر إليه الربيع وبلغه رغبة الأسود فى زواجه من المتجردة ، ووصاه أن يساعد فى تحقيق رغبته ، فقال له : سمعاً وطاعة . وكانت هذه أمنية الربيع ، فدخل على قيس بن زهير وأخبره ، وقال : هذا خير ساقه الله إلينا ، واحذر أن تعارض أو تجادل ، فستجنى من ورائه قوة الجانب ، والكلمة النافذة بين العرب ، فقال قيس : لك ذلك .

* * *

وفى الصباح غص مجلس الأسود بالملك قيس وإخوته والربيع بن زياد وحصن بن حذيفة ، وسنان بن أبى حارثة ، وأمراء العرب وفرسانهم ، فقال وزير الأسود عمربن نفيلة للملك قيس بن زهير : أيها الملك ، لنا عندك

حاجة ، فيها صلاح لنا ولك ، وذلك أن الملك الأسود راغب أن يتزوج من المتجردة بنت زهير وزوجة أخيه النعمان . . فقال الملك قيس : إن فى ذلك شرفاً لنا وعزة ، وهى زوجته من هذه الساعة . فقال الوزير : وستكون صاحبة القصر ، والحاكمة فيه مدى الحياة والعمر ، وأخذ بيد الملك الأسود ووضعها فى يد الملك قيس ، وأبرما عقد الزواج .

حزن لذلك حصن بن حذيفة، وقال لسنان بن أبى حارثة : لقد أصبح بنو عبس إلى الملك الأسود أصهاراً وأنساباً ، كما كانوا إلى أخيه النعمان أصهاراً وأنساباً ، فاستقام أمرهم وقوى نفوذهم ، وارتفع شأنهم ، ورجعنا نحن إلى ما كنا فيه من ذل وهوان. فقال سنان بن أبى حارثة : وماذا يضيرنا من هذا الزواج ؟ إنهم على كل حال أبناء عمومتنا ، ولا تنس أن عمتك معه من قبل . أما الملك الأسود فإنه فرح وقال : الحمد لله الذى جمع شملكم ، ومحا الغضب من نفوسكم ، وأصبحتم يداً واحدة ، وأوصيكم بالأخذ بثأر حصن بن حذيفة ورجاله من عنترة بقتله وسحق رجاله ، فضج العرب له بالشكر والثناء ، ومضى ذلك اليوم فى فرح ومرح ،

وفى جمع حافل من غد ذلك اليوم أعطى الأسود قيساً مهر المتجردة ، وكان ألف ناقة عصفورية ، ومائة جواد ، ومائة ثوب من الديباج ، ومنح قيساً كثيراً من الهدايا ، وقال له : ارجع إلى أهلك وعشيرتك مكرما ، فإذا انتهيت أنا من قتل عنترة ، أنفذت إليك فى طلب المتجردة ، فقال الملك

قيس : سأحمل إليك زوجتك ، وبعد ذلك نفرغ متعاونين لقتل عنترة وهلاك رجاله . فقال الأسود : لك رأيك فافعل ما شئت .

وكان ورقة بن زهير حاضراً ، وهو يحب عنترة ، ويبغض من يبغضه ، ولهذا كتب إلى عنترة خفية كتاباً ، شرح له فيه كل شىء ، وبعث به سراً عبدا من عبيده ، فانطلق العبد إلى عنترة ، وسلمه الكتاب فى منزله عند بئر معاوية وماء النظيم .

أما الملك قيس ومن معه فقد رحلوا إلى ديارهم واستقر بهم المقام فيها ، وهناك أقام الولائم وجهز أخته ، وأنفذها إلى الأسود مع أخيه نهشل ، ومعه ثلاثمائة فارس ، فلما وصلوا إليه استقبلهم فى فرح عميم وأقام الولائم وذبح الذبائح لهذا الزواج الميمون ، ثم دخل بزوجته التى نعمت بزواجها من الأسود ، ونسيت به أخاه النعمان ، ثم أرسل إلى الملك قيس الهدايا والمنح مع أخيه نهشل وودعه أكرم وداع وأحفله .

٤

وبينما كان عنترة جالساً فى داره ، ومن حوله جماعة من أصحابه ، دخل عليه رسول ورقة بن زهير بكتابه ، فأخذ عنترة منه الكتاب ، وسلمه إلى عروة ليقرأه على مسمع من الأصحاب ، فلما قرأه أسف عنترة وقال :

ليس لنا فى بنى عبس صديق نرتجيه غير ورقة بن زهير ، فاكتب إليه عن لسانى : بالشكر والحمد الجميل ، وقل له : أما العرب وجموعهم فلن أبالى بهم وإن كانوا غصة الأرض ، وأما تنكر الملك قيس وعداوته لى ، ونسيانه فضلى ، فذلك موكول له ، وسيندم عليه أوجع الندم وأقساه ، ثم أخذ عبد ورقة الكتاب ورجع . وقال عنترة لعروة : علينا أن نأخذ حذرنا من كل عدو وصديق ، وألا نأمن غدرات الزمن ، فهذا الملك قيس ، قد أخلف الظنون بتقلبه ، وبغضه لنا الذى لم نكن نتوقعه ، بعد أن أحييته وقومه ، ورفعت ذكرهم ، وقهرت النعمان والأسود وكسرى من أجلهم ، ولكن الأيام سوف تريه الندم الأسيف .

وأما الملك قيس فإنه اطمأن وجعل يقيم الولائم ، ويحضرها الربيع وعشيرته وغيرهم من رجالات بنى عبس ، وكانوا يتوددون إلى الملك قيس فيقولون ، ما أحلى هذه الولائم التى لم نجد فيها عنترة بن شداد ، وغاظ هذا الربيع فقال : كيف تهتمون بعنترة ويتردد ذكره على ألسنتكم وما هو إلا أهون إنسان وأصغره ؟! وسترون أن الأسود لا يبقى له ولا لرجاله أثراً فى الدنيا .

وكان عنترة لشدة حذره ، وخوفه أن يباغته الملك أو الربيع بمكيدة من مكايده — يخرج إلى البيداء كل يوم فرسخاً أو أكثر ، هو وعروة وميسرة وسبيع اليمن ، وشيبوب ، ويمشون هنا وهناك ، لعلهم يطلعون على

حيلة مدبرة من أعدائهم . فلاح لهم راكب على بعد منهم ، فقال عنترة : انظر يا عروة إلى هذا الراكب مطيته ، فنظر وقال : تلك ركبة عبسية . فقال عنترة : حينئذ لا بد من الميل إليه والتعرض له ، لنعرف سبب مجيئه وحده ، وقد يكون بريئاً وفى حاجة إلى معونة ؛ فقال عروة : لا بأس فى ذلك . ثم أرخى كل منهما العنان لجواده ، فأدركاه ووقفاه ، ثم سأله عنترة بعد أن عرفه أنه من بنى عبس : إلى أين تذهب ؟ قال : إلى بعض أحياء العرب ، فسأله عنترة : وإلى أية حلة تقصد ؟ أجاب : إلى بنى زبيد ، قال عنترة : وما الذى حملك على الجد فى السير ؟ فرد عليه : معى كتاب إلى عمرو بن معد يكرب ، يخبره فيه الملك قيس ما بلغه من رفعة وعلو شأن . فسأل عنترة : وكيف حال الملك قيس ؟ قال الأعرابى : ليس هو الآن كما عهدته من قبل ، فقد صاهر الملك الأسود ، واصطلح هو وحصن بن حذيفة ، وهو الآن ملك الحجاز واليمن ، لا يعارضه أو يقاومه فيهما أحد . وقال عنترة : انزل يا هذا لتأكل من طعامنا فقال : لا أستطيع لأنى من أمرى على عجل ، فقال عنترة : إما نزلت وإما أطلعتنا على الكتاب الذى معك ، فقال : كيف يجوز أن تطلع على أسرار الملوك من العرب ؟ فقال : لا بد من ذلك لأن لى فيه غاية وأرباً ، فقال : لن تأخذ الكتاب إلا غصبا ، فجذبه عنترة من فوق ناقته ، ولطمه على ظهره فأكبه على الأرض ، ثم جذبه إليه فعدله ، ومد يده إلى مذوده

فأخرج الكتاب، وناوله إلى عروة ففضه وقرأه، وعرف عنترة أنه كتب إلى عمر ويغريه به فأخذ الكتاب من عروة ورماه فى وجه الرجل وقال: خذ الكتاب واذهب إلى صاحبك، فأخذه الرجل وانطلق وهو لا يصدق أنه ناج من عنترة، ثم قال عنترة لعروة: لقد صدق ورقة بن زهير فيما حدثنا به، ولا بد لى الآن من الإغارة على بنى عبس ونهب أموالهم، فقال عروة: وهل ترضى أن تنهب أموال بنى عمك من أجل قيس وغدره؟ فقال: أريد بذلك أن أجعلها عداوة صادقة، ولأرى ما يفعله ملكهم الأسود، وليروا إن كان الأسود قادراً على حمايتهم أو غير قادر. فقال عروة: كما ترى، فقال عنترة: ارجع بنا لندبر أمرنا ونعد عدتنا للإغارة على بنى عبس.

وعاد عنترة إلى رجاله، وأخبرهم بما وقع، وما عزم عليه من الإغارة على بنى عبس، ونهب أموالهم، ووصاهم أن يحترسوا ويحذروا، فقال عروة: إن الكتاب إذا وصل ووجدوه قد فض وقرئ فإنهم سيسألون عن ذلك، فقال: وما فعلت ذلك إلا ليعلموا بما حدث، فيثقل على نفوسهم أمره، فإذا عرفوا أنى رحلت للإغارة حدثوا أنفسهم بما يريدون أن يفعلوه فى غيبتى، ثم ركب فى مائتين من رجاله، واتخذوا سبيلهم فى القفار إلى بنى عبس، فوصلوا إلى ديارهم وطلوع الفجر، فكمنوا فى مخبأ أخفاهم عن العيون، وانتظروا حتى سرحت الأموال، وأبعد بها العبيد عن الديار أكثر من فرسخ، ثم أغار هو ورجاله عليها،

وساقوها أمامهم، وضربوا فى أقفية العبيد ضربات شديدة وكانوا ينادون: يالخثعم! يالمراد! إخفاء لأنفسهم، وتنكيلا ببنى عبس، ليعلموا أنه قد طمع فيهم من كانوا يخشون بأسهم، وعنترة بينهم، وفر الهاربون من العبيد مستصرخين الملك قيساً وقالوا: أغار علينا بنو خثعم وبنو مراد، فساقوا الأموال، وقتلوا جماعة من العبيد، وهم لا يجاوزون المائتين، ولكنك إذا رأيتهم حسبتهم مردة من الجن، فعظم عليه أمرهم، فنادى: الخيل... الخيل!! النفير... النفير! وركب فى ألف فارس، فيهم إخوته، والربيع وأتباعه، وعمارة أخوه. واقتفوا آثار المغيرين، حتى أدبر النهار، واختفى الأثر، فسلكوا طريقاً غير طريق عنترة، واستمروا سائرين حتى طلع الصبح عليهم، وهم فى أرض قفراء، لا يهتدون فيها إلى سبيل، وجعلوا يتلاومون، إذ ساروا فى ظلام الليل على غير هدى، حتى وقعوا فى تلك المتاهة من الصحراء. فتلمسوا السبيل إلى ديارهم، مقتفين آثارهم، حتى وصلوا إليها، وقد أرهقهم المسير، ولم ينالوا شيئاً من أموالهم. فغاظ أمرهم هذا ورقة بن زهير. وقال لأخيه قيس: انظر يا أخى، هذه طلائع ما سنلقاه من الوبال، بسبب غياب عنترة، وسنرى من أعراب البوادى والبرارى كل شدة وضيق.

* * *

أما عنترة فقد رجع بما أخذه من الأموال إلى ديار بنى عامر، وأقام

مطمئناً ، وفى اليوم السادس من عودته قال لعروة : قد جاهرنا قيس بن زهير بالعداوة والبغضاء ، وأصبحنا غرضاً لسهام العرب ، وكرهنا بنو عامر لأنهم قرءوا الكتاب وما أخبرونا ، ولا نصحوا لنا أن نأخذ الحيطة من أعدائنا ، وأرى أن نرحل إلى معصم من الجبال ، نحفظ فيه العيال والأموال فقال عروة : إنك الآن نشدة الملك الأسود ، وهدف لسهام العرب ، وقد هدك الكبر وغيرك ، فانظر فى أمرك وتدبر ، ولا تقدنا إلى مواطن الخطر ، فإنى أخاف أن تهلك ، وتهلكنا معك ، فقال عنترة : إن كنت قد سئمت صحبتى ، وثقل عليك عبئى ، وبهظك أمرى ، فإنى لا أحملك من شأنى ما لا طاقة لك به ، وامض مشكوراً إلى قومك فإنهم يقبلونك ، ويفرحون بعودتك ، ولك العذر فيما رأيت من ذلك . فذهل عروة حين سمع هذا القول ، كان عنترة ينتظر ما يقول ، وبينما هما على هذه الحال إذ أقبل عليهم جماعة من بنى عامر ، وهم : ملاعب الأسنة ، وعلقمة بن علاثة . وعامر بن الطفيل ، والأحوص بن جعفر ، فانطلقا من موقفهما هذا ، وذهبا ومعهما جماعة من بنى عبس إليهم ، فاستقبلوهم ، وأكرموهم وفرحوا بقدومهم ، ثم قال الأحوص بن جعفر : يا أبا الفوارس ، لا يكن فى صدرك ريبة منا ، لأننا قرأنا الكتاب الذى يحمل لك الوعيد ولم نخبرك به ، ولا تحسبن أننا فزعنا من تهديد الملك قيس ، وقوله إن الأسود قادم بجنده وفرسانه ، فنفضنا أيدينا من معونتك ، والالتفاف من حولك ، واعلم أننا

معك ، ولن ننفض عنك ، وأرواحنا وسيوفنا فى قبضة يمينك ، فإن أقمت أقمنا معك ، وإن رحلت رحلنا معك . وإن حاربت فقلوبنا وسيوفنا لك ، وإن صالحت فنحن رجالك وأحباؤك ، فشكرهم عنترة وفرح بهم ثم قال : أخشى على العيال والأموال إن بقينا فى منزلنا هذا ، وأرى أن نرحل إلى أرض قريبة من الحيرة ، وهناك نجعل العيال والأموال فى مكان حصين ، ثم نتجرد لقتال من يأتينا ، ونحن آمنون على عيالنا وأموالنا .

* * *

أما الملك قيس فإنه أرسل طليعة عدد فرسانها خمسون ، وأمرهم أن يكشفوا له أمر عنترة ، فساروا حتى دخلوا أرض بنى عامر ، فوجدوها خالية إلا من العجائز والضعاف ، فسألوا عن عنترة وبقية الرجال ، فقالت عجوز : إنهم رحلوا إلى أرض العراق منذ يومين. فلما رجعوا لقيهم عنترة، فى الطريق فلم يجدوا لهم منه مهربا ، فأقبلوا إليه ، وسلموا عليه سلام المحبين ، وسألهم عنترة : من أين أتيتم؟ وما وجهتكم وغرضكم؟ فقالوا : كنت وجهتنا وغايتنا ، فقال : وماذا تريدون منى ؟ فقالوا : علم ملكنا قيس من العبيد الهاربين أن بنى خثعم وبنى مراد هم الذين نهبوا أموالنا ، فركب فى ألف فارس وجرى من خلفهم حتى ضلوا فى الصحراء ، ولم يعثروا بأحد ، فخافوا ورجعوا بخفى حنين ، ثم قال لهم الربيع بن زياد : ما أخذ أموالكم إلا عنترة بن شداد ، فارتاب فى قوله وأرسلنا إليك لنتبين الأمر ، فقال لهم

بلغوا الملك قيساً أنى أنا الذى نهبت أموالهم ، وأنى لا أخشاه ، ولا أخشى الملك الأسود ، ولا أخشى العرب أجمعين وأنا سائر إلى صهره لأخرب دياره فليعد عدته وليبذل ما فى طاقته وجهده ، فأنا له ولمن معه ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، فقالوا : والله يابن العم ما عليك بأس فيما فعلت فهم الذين جحدوا فضلك ، وتنكروا لك ، وبدءوك بالعداوة ، وما ظلمتهم ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ، وأما نحن فما لنا ذنب ولا جريرة ، وما أصبنا فى أموالنا إلا بسببهم ، وما بنا جحود لفضلك ، ولا إنكار لمعروفك ، وقد نهبت أموالنا معهم ، ونحن أقلهم مالا ، وأضعفهم شأنا ، فرق عنترة لهم ، ورثى لحالهم ، وأمر أن ترد إليهم أموالهم ، وأن يمنح كل منهم مائة ناقة من ماله مع أموالهم ، فأخذوا ما منحهم إياه ورجعوا إلى ديارهم فرحين شاكرين .

فلما دخل الفرسان الخمسون الديار ذهل بنو عبس ودهشوا وقالوا لهم هل عثرتم فى طريقكم على هذه الأموال ، أو نهبتم حلة من حلل العرب على غفلة من أهلها ؟ ! فقالوا : تلك أموالنا ردت إلينا ، ومعها لكل منا مائة ناقة ، منحة من ابن عمنا عنترة . ثم ذهبوا إلى منازلهم بأموالهم ، وهناك خلعوا ما عليهم من عدة القتال وأسرعوا إلى الملك قيس فوجدوه جالساً فى حفل جامع من إخوته وأكابر عشيرته ، وسادات قومه ، والربيع بن زياد ، فسلموا ثم أخبروه بكل شىء ، فقال قيس : صدق ظن الربيع ، وقد

اتفق عنترة وبنو عامر ، وذهبوا إلى أرض العراق ، ولا أتوقع له إلا كل فوز وفلاح . فقال الربيع : واذل بنى عبس من هذا العبد الذى لا رادّ لطغيانه وتمرده ! ! فقال بنو عبس جميعهم بلسان واحد : والله ما أذل بنى عبس أحد غيرك ، وما ألقاها فى متاهة من أمرها أحد سواك ، وما أنت بمبعد عنهم حقدك ومكرك حتى تفنيهم جميعاً ، وما دمت فى بنى عبس فلن نلبث فيهم ، وها نحن أولاء راكبون وراحلون إلى حاميتنا عنترة بن شداد .

وجد الملك قيس نفسه أمام فتنة ماحقة لنفوذه ، وعصيان متمرد على سلطانه ، فاستنصر ذكاءه وحسن تدبيره وقال لهم : إن عنترة من بنى عبس كالروح من الجسد ، فما وصلنا إلى ما نحن فيه من عزة وقوة إلا بسيفه ورمحه ولن نستغنى عنه إلا إذا استغنينا عن أبصارنا التى نبصر بها ، وأيدينا التى نبطش بها ، وما أبعدته ولا زوجت أختى من الأسود إلا لأطفىء لهيب نار كنت أخشى منها على نسائكم وعيالكم ، وقد أطفأناها الآن ، ورجعنا إلى حقيقتنا من عنترة ، من خالص المحبة ، وصادق الوفاء ، وجميل التقدير والإعجاب ، وتلك الحال منا فى هذا الوقت أشد منها فى أى وقت آخر ، إذ أطاعه بنو عامر وبنو كلاب ، فلنركب جميعنا ولنجد فى المسير إليه ، لنكون تحت رايته جنوداً مخلصين . فشكروا للملك قيس حسن موقفه وأثنوا عليه ثناء جميلا ، ما عدا الربيع بن زياد فإنه أصيب فى قلبه ، وانطوى فى ثياب من غيظه وحقده ، ولكنه تظاهر بالفرح مخافة على نفسه

ومسايرة لهذا الشعور الكريم الذى يتدفق من بنى عبس تدفق السيل . وما لبثوا غير ساعة من نهار حتى كان بنو عبس وعيالهم ونساؤهم فى طريقهم إلى عنترة ، وكان قد نزل هو ومن معه فى مكان حصين بين جبل الخشاخش والتناصب ، وعول هو وفرسانه على أن يسيروا للإغارة على الملك الأسود .

وبينما هم على أهبة المسير لهذه الإغارة إذ رأوا غباراً ظنه عنترة لعدو مغير ، فأبى أن ينتظر حتى يغزوه فى مضاربه ، وركب جواده وتبعه رجاله ، وساروا حتى أشرفوا على هذا الغبار ثم وقفوا حتى يكشف لهم هذا الغبار عما تحته ، وإذا بجماعة قد أقبلوا على عنترة فسألهم : من أنتم ؟ وإلى أين تذهبون ؟ فقالوا : هؤلاء جميعهم بنو عبس ، قد جاءوا ليصلحوا ما بين عنترة وملكهم قيس ، إذ أنه ندم على ما فعله . وما كادوا ينتهون من قولهم حتى كان الملك قيس قد أقبل إلى عنترة ، ومن حوله إخوته وبنو أعمامه ، والربيع بن زياد. فلما رآه عنترة لم يشأ إلا أن يكون كريماً متواضعاً ، فنزل عن جواده ومشى إلى لقاء الملك قيس ، وفعل مثله رجاله وأتباعه ، فاستقبله الملك قيس فى حنايا صدره ، وضم عليه ذراعيه ، وقبله بين عينيه ، واعتذر إلى عنترة وعيناه تفيضان بالدموع ، فقال عنترة : ما أنا أيها الملك إلا عبدكم ، وصنيعة إحسانكم ، ولا تزال الملك ترضى وتغضب ، فإن رضيت عنى وعفوت فأنت بذلك أجدر وأكرم. فانطلقت ألسنة بنى عبس بالدعاء



الملك قيس يضم عنترة إلى صدره

لعنترة والثناء عليه ، والاعتذار له ، ولما تم الصلح والوفاق رجع بهم عنترة إلى مكانه الذى اختاره بين الجبلين ، ونزلوا فيه وهم فرحون مطمئنون . وبعد أن استقروا قال الملك قيس لعنترة : إن ما وجدناه من كرم خلقك وعظيم صفحك يجعلنا أن نكل أمورنا إليك ، فأنت من الآن القائم عليها والمصرف لها ، وما نحن إلا خاضعون لأمرك ونهيك . فشكره عنترة ، وزاد بذلك فى نفوس العرب قدراً ورفعة . وأراد أن يسير إلى الملك الأسود فقال له أخوه شيبوب : يا أخى ، اسمع منى ما أقول : احمد الله تعالى الذى جمعك إلى بنى عمك ، وأتم نعمته عليك بأن ألف بين قلوبكم ، واعلم أنك نزلت بجوار الأسود وهو ملك قوى عظيم الشأن ، ومن خلفه الملك كسرى ومعه بنو لخم وبنو جذام ، وبقية العرب أطوع من ساعده له ، وأنت بإغارتك على الملك الأسود تلقى بنفسك فى أخطر المسالك ، ومن الواجب أن تفكر وتقدر ، وتحتاط وتحذر ، وأنت الآن أصبحت فى ثمانية آلاف فارس وإن كان ولا بد من الغزو فإنى أرى أن تترك مع النساء والعيال والأموال ألفين من بنى عبس وألفين من بنى عامر ، ثم تسير أنت فى أربعة آلاف مثلها من بنى عامر وبنى عبس إلى حيث تريد ، فإنك قادر أن تلقى بهم من تشاء من الجيوش . فقال عنترة : ذلك رأى جميل ، وأمر فى الحال بتنفيذه .

لم يحتمل الربيع تلك الصدمة ، ودبر مكيدة ليفسد على عنترة خطته ،

ويلقى به إلى التهلكة ، غير مبال بما يجترحه من الخيانة بينه وبين نفسه ، فكتب كتاباً شرح فيه عزم عنترة ، وصلح الملك قيس وبنى عبس ، وأنفذ به عبداً من عبيده إلى الملك الأسود سراً ، وانطلق العبد به حتى دخل على الملك الأسود وسلمه إليه ، فناوله إلى وزيره عمر بن نفيلة العدوى ، فلما قرأه وعرف الملك الأسود ما فيه ، غضب غضباً شديداً وقال : قد انهدم ما بنيناه ، وكأننى ما قربت بنى عبس إلىّ ، وأوثقت رابطتى بهم إلا ليصالحوا عدوى ، ويحرضوه على قتالى ، ثم دخل على زوجته المتجردة وهو يتميز من الغيظ فقالت له : عافاك الله يا سيدى من كل شر ، ما أغضبك وأحزنك ؟ فقال لها : ما كنت أنتظر من أخيك الملك قيس أن يجزينى بالعداوة والبغضاء ، وأن يتفق هو وعدوى على مناوأتى وكيدى ، ثم قرأ عليها كتاب الربيع بن زياد ، فتأثرت وشرد ذهنها ، ثم قالت : أود أيها الملك لو تكتب إليهم وتتلطف ، وألا تقف فى سبيلهم ، فسيوفهم باترة ورماحهم خارقة ، ونارهم مهلكة ، وهم جمرة العرب ، وأشجع من هب ودبّ ، فزاده قولها هذا غيظاً . ودفعها بيده فى صدرها فاستلقت على ظهرها ونادى بالجوارى أن اخنقوها فوراً ، فانهلن عليها ، وكتمن أنفاسها ، وجلسن على صدرها وفمها حتى ماتت ، وأمر أن تدفن دون أن تغسل وتكفن ، فلم تمض غير ساعة حتى دفنت المتجردة كما أراد الملك الأسود زوجها ، ثم خرج إلى مجلسه فى ديوانه ، وأخبر وزيره عمر بن نفيلة بما فعله ، وقال :

ما فعلت هذا إلا لأقطع الصلة بينى وبين بنى عبس ، وحتى لا يكون بيننا إلا العداوة التى لا رجاء فى إزالتها ومحوها ، ثم كتب إلى ملوك العرب أن يمدوه بفرسانهم ، فتوافدت عليه من كل صوب. وكان آخرهم ذا الخمار ثم جمع الملوك وقرأ عليهم كتاب الربيع بن زياد : فقالوا : وهل بلغ عندك هذا العبد إلى الحد الذى تجمع له هذه الجموع ؟ ! إن أحدنا كاف أن يذهب إليه فى عشرة آلاف ليأتيك به ، وبمن معه مصفدين فى الأغلال.

وبينما هم فى حديثهم هذا دوى صوت عبيد الملك الأسود فملأ الأسماع والجواء ، وهم يستغيثون، فسئلوا عما حل بهم فقالوا : نهبت أموال الملك وأموال العرب جميعها، فاقرأ كيف أخذت تلك الأموال جميعها وكيف نهبت ؟

٥

كان عنترة قد أنفذ الخذروف بن شيبوب إلى الحيرة جاسوساً يكشف أحوال الملك الأسود ويرجع بها إلى عنترة ، واتفق أن يكون حضوره وقت محنة المتجردة وقتلها ، فعرف كل شىء عن هذا القتل ، وكتاب الربيع ابن زياد ، ووفادة الملوك وجيوشهم إلى الملك الأسود ، وكيف يقاتلون عنترة ، واجتمع فى طريقه وهو راجع إلى عنترة ، بعبد من عبيد المتجردة ،

كان قد انسل من الديار خلسة ليبلغ الملك قيسا ما فعله الملك الأسود من قتل أخته ، وما عزم عليه من قتاله ، وسارا معا حتى لقيا عنترة وجيشه فى طريقهم إلى الحيرة ، وقص الخذروف على الملك وعنترة جميع ما عرفه .

سار عنترة فى جيشه حتى أشرفوا على الحيرة ، فأوى بجيشه إلى مكمن حصين وراء التلال ، ولما سرحت الأموال خرج إليها ، وساقها جميعها ، وأنفذها مع خمسمائة فارس من فرسانه ، ولبث هو ومن معه ينتظرون المعركة ونشوبها .

خرج الملك الأسود فى جيشه إلى ظاهر الحيرة ، وسأل العبيد عن المغيرين الذين نهبوا الأموال ، فقالوا : ما عرفناهم ولا عرفنا أحداً منهم ، لأن الإغارة كانت حامية ، وشغل كل منا بنفسه ، لينجو من الهلاك . فقال الملك الأسود : ما فعل هذا بأموالنا إلا عنترة، فهو الذى أسرنى وأنا فى عشرين ألفا من الفرسان فى وادى الرخم ، ومياه بنى الأخرم ، وأنزل بى الضيم والضير ، فأسر سبعة آلاف وقتل مثلها ، فحار الملوك فيما سمعوه من الملك الأسود وقالوا : أنت ملك خطير الشأن ، وعندك ما لا يحصى من الجنود والأعوان ، فكيف تحفل بهذا العبد وهو أحقر من أن يجرى ذكره على لسانك ؟ ! وكان العبيد الهاربون لا يزالون يصرخون من الآلام فقال لهم الملك الأسود : وكم عدد هؤلاء الذين أغاروا على أموالنا ونهبوها ؟ فقالوا ربما جاوزوا الألفين ، فجهز عشرة آلاف فارس ، وأمرهم أن يدركوهم ،

وألا يرجعوا إلا بأموالهم ، ومعها عنترة ورجاله مقيدين ، ليعذبهم ثم يقتلهم.

لبث عنترة ومن معه ينتظرون عدواً ، ونشوب معركة ، فما لبثوا غير ساعة حتى تجاوبت بروق أسلحة الأعداء ، وكانوا يصيحون : يأيها اللئام ! أين تذهبون ونحن من ورائكم ؟ ! وأرسلوا أبصارهم فى الفضاء فلم يجدوا أثرا للأموال ، ورأوا فرساناً ينتظرون ، فأرخوا أعنة خيلهم ، وانطلقوا مسرعين إليهم ، فانفلت إليهم عنترة على جواده الأبجر ، ولم يكن أحد من الأعداء يعرفه ، فلما رأوا ضخامته ، وسعة أكتافه ، ذهلوا واندهشوا ثم قالوا : من أنت ؟ ! ومن أين جئت ؟ ! وكيف تغير على أموال الملك الأسود وتنهبها ؟ ! فأدرك عنترة أنهم لم يعرفوه ، لأنهم مجموعون من أقطار نائية ، وقال : لسنا يا قوم ممن يقدرون أن يغيروا على الملك الأسود أو يأخذوا أمواله ، ونحن من بنى تميم ، أتينا إليكم ولا نبغى بكم شرا ، وقد لقينا فى طريقنا إليكم خيل كثيرة ، يسوق فرسانها أمامهم أموالا كثيرة ، ولا يفتئون يلتفتون وراءهم . فقال بعضنا لبعض ربما نفرت الخيل لرد الأموال فظنوا أننا كنا مع هؤلاء المغيرين ، فألحقوا بنا أضراراً ليس لنا فيها ذنب أو جريمة ، فسبه العرب وشتموه وقالوا له : أيها الوغد ؛ لا تكذب ، واصدقنا الخبر ، وإلا قتلناك ، فأجابهم مستهزئاً بهم : إن البغى مصرعه وخيم ، ومن حاد عن الحق كان مبطلا وخسر ، وما نحن ممن يجرءون على مثل هذه الفعلة ، فى الأسود ، ملك الأعراب ، ونائب الملك كسرى

فاذهبوا عنا ، ولا تعترضوا سبيلنا ، وإلا حل بالباقين الفناء . فصاحوا فى وجهه وقالوا : ما أقدرك وأجرأك على أن تلبس الباطل ثوباً من الحق مزخرفاً ثم أحاطوا به ، وبدءوا يقاتلونه ، فاستقبلهم عنترة ومن معه بأسلحتهم ، وجعلت تنثر الجماجم ، وتمزق القلوب ، وتبقر البطون ، ولم يمض أكثر من ساعة حتى كان عنترة قد قتل أبطالهم ، وأسر المقدمين فيهم ، وغيرهم من الفرسان ، وحتى أوقع الرعب فى قلوبهم ، وشردهم فى القفار فزعين وجلين واستولى على أموالهم وأسلابهم ، وربط أسراهم على خيولهم ، ورجع ظافراً بما غنم وأسر إلى المكان الذى به فرسانه ، أما الهاربون من الأعداء فقد رجعوا إلى الملك الأسود ، فألفوه فى جماعة من كبار دولته وجنده ينتظرون عودة الجيش فائزاً مظفراً ، ومعه المغيرون أسرى ، ولكن ما كان أشد دهشته حينما سمع صياح المهزومين يدوى فى الأجواء ، فأحضرهم بين يديه وسألهم : كيف هزموا وهم كثرة ساحقة ماحقة ، فتقدم إليه جهير بن جلهمة ، وهو غارق فى دمه وقال : أدركنا الأعداء ورأيناهم قلة فطمعنا فيهم وانطلقنا بخيلنا إليهم . ونحن على يقين أنهم لن يلبثوا أمامنا ساعة من نهار ، ولكن فارساً أسود منهم انقض علينا وجعل يحصدنا حصد الهشيم وتبعه رجاله ، وحاكوه فى ضربه وطعنه ، فزاغت منا الأبصار وولينا الأدبار ولولا هربنا لكنا من الهالكين ، فكاد يصعق غما وحزنا ، وقال : ولن يفعل هذا إلا ذلك الشيطان اللئيم عنترة بن شداد ، الذى أبطل بشجاعته

كل حيلة ، فلا صبر لنا عليه ، ثم دعا ملوك العرب والأبطال ، فلما حضروا قال لهم : اعلموا يا سادة العرب إن هذا العبد قد طغى وبغى ، واستكبر وتمرد ، وقد أعانه بنو عبس وبنو عامر ، وأريد منكم قطع دابره قبل أن يصل إلى مسامع الملك كسرى عجزنا عنه ، فنفقد قدرنا عنده ، فدبروا الأمر ، وأشيروا علينا بما ترون . فأطرقت الرءوس ، وساد المجلس سكون التفكير وهدوءه ، ثم قال الوزير عمر بن نفيلة ، أرى أيها الملك أن تبعث إلى عنترة رسولا قوى البيان فصيح اللسان ، حازماً فى رأيه ، حكيما فى قوله ، ومعه كتاب من عندك ، وعلى ضوء ما يجيب عنترة يكون الرأى والتدبير ، فقال الملك : إذا كان الأمر كما أشرت وبينت فأنت رسولى إليه فقال : سمعا وطاعة ، وسأكتب إليه الكتاب هذه الساعة ، وأمر كاتبه أن يحضر إليه ، فلما حضر أملى عليه الكتاب فقال : إلى الطاغى الذى استكبر على الملوك وبغى ، إنك تعلم أنى ملك شديد ومن ورائى الملك كسرى فكيف تجاهرنى بالعداوة وما أنت إلا عبد من العبيد ؟ إنك إن لم تستقم فى أمرك ، وترجع عن فعالك ، وترد ما أخذت وأسرت من الأموال والرجال، وتطأ بساطى خافض الجناح ، مطأطئ الرأس ، خاضعاً لسلطانى وأمرى عجلت بهلاكك ، فراجع عقلك ، وارجع إلى رشدك ، والسلام على من أطاع واهتدى ، واللعنة على من شاقق وعصى ، ثم طوى الكتاب ، وتجهز للمسير ، وكان عمر بن نفيلة يحب عنترة ، فدبر هذا

الرأى ليسير هو إليه ، ويكشف له الأمر ، وينصح له بما يفعله . وكان عنترة قد استقر فى الجبلين واطمأن ، وأقام حراساً من الفرسان ، ليأخذ لكل أمر أهبته ، قبل أن يباغته .

سار عمر بن نفيلة ، إلى عنترة فى عصبة من قومه ، فلما قرب من الجبلين ورآه الحراس أخبروا عنترة فى الحال ، فركب جواده ، وركب سادات العرب معه ، وخرجوا إلى الوزير فتلقوه بالإعظام والترحيب ، ورجعوا به إلى منازلهم ، وأجلسوه مكرماً بينهم ، ثم أخرج الوزير الكتاب وقرأه عليهم ، فضحك عنترة مستهزئاً ، ثم قال : اعلم أيها الوزير أنى لا أبالى بهذا الهذيان ، وليذكر الأسود ما فعلته بأخيه النعمان ، وليذكر هو أنه كان فى يدى أسيراً ، ومننت عليه بالعتق بعد ذل الأسر وهوانه ؛ وليعلم أنه إن لم يسلم لى حصن بن حذيفة لأقتلنه قتلة شنيعة ؛ وأما جموعه الحاشدة فما هى عندى إلا كالأغنام إن أردت ذبحها ذبحتها ، وإن أردت تفريقها فرقتها ، وأمام هذا الإصرار والحدة أفسح الوزير صدره وضحك وقال : لقد رأيت أن هذا الخصام لا ينتهى وأنت على هذه الحال ، وما كنت أود أن أجىء إليك فى هذا الأمر ، ولكن الملك أرغمنى على أن أكون الرسول إليك ، وما بقى لى حاجة فى البقاء ، وأريد العودة إلى الملك الأسود ، وأود أن تشيعنى إلى مسافة غير بعيدة . وقد ظن الربيع وسادات العرب أن الوزير خاف من عنترة فتلاطف له فى القول وطلب أن يشيعه حتى

يأمن على نفسه ، وركب عنترة وسار مع الوزير حتى خرجا من الجبلين ، ثم أقبل الوزير إلى عنترة وقال : يا حامية بنى عبس ، اعلم أن أشد الناس عداوة لك الربيع بن زياد ، وحصن بن حذيفة ، وسنان بن أبى حارثة ، وهم الذين أحرجوا الملك الأسود ، وجعلوه يقف منك هذا الموقف ؛ واعلم أنى ما أتيت بهذا الكتاب إلا لأبيّن لك عدوك من حبيبك ، وما قلت هذا القول أمام الربيع إلالأنه أرسل إلى الملك الأسود كتاباً بخطه ، أعلمه بكل شىء يجرى عندك ، فكن منه على حذر ؛ وإياك أن تطلعه على شىء من هذا ، وأما الجيوش التى يريد الأسود أن يبعث بها لمحاربتك فلا تهتم بها ، فإنى سأعاونك ولا أجعلهم يرسلونها جملة واحدة ، ولكنى سأجعلهم يرسلونها على دفعات ، كل دفعة تستطيع أن تسحقها وتغلبها ؛ ثم ودعه ووصاه أن يكتم سره ، فشكره عنترة وحمد له صدق محبته وعظيم وفائه ومروءته . ثم رجع عنترة وقلبه يغلى من الغيظ والكراهية للربيع بن زياد ولكنه لم يبد له شيئاً مخافة أن تختلف العشيرة وتفترق ، وكان مع عنترة فى وداعه للوزير سبيع اليمن وولده ميسرة ، وصديقه عروة بن الورد ، وقد سمعوا ما قاله الوزير عمر بن نفيلة ، فوصاهم ألا يطلعوا أحداً عليه ، وقال : وسأريحكم من الربيع بقتله ، ليكون عبرة لغيره .

وصل الوزير إلى الحيرة ، ودخل على الملك فى مجلسه ، ومعه كبار دولته وسادات العرب ، ليسمعوا ما يقوله الوزير بعد عودته من عند عنترة .

فلما استقر به المكان سأله الملك : أيها الوزير الكبير ، ماذا حملت من الأخبار ؟ فقال الوزير : إن الأمانة والوفاء لك يقضيان علىّ ألا أكتم عنك شيئاً فقال : صدقت ، ومن أجل ثقتى فيك اخترتك لتكون رسولا ، فقال حصن بن حذيفة : إن الملك ما أرسلك إلا لتنصح له ، وتشير عليه بما يفعله ، فقال الوزير : أتأذن لى أيها الملك أن أتكلم ؟ فقال حصن بن حذيفة : تكلم . فقال الوزير : اسكت يا حصن ، سكت حسك ، وخرس لسانك ، وسكنت رمسك . فما أثار أحد هذه الفتنة غيرك . ولكن هذه المناقشة لم تعجب الملك الأسود فأرسل إلى عنترة جيشاً بقيادة عاطل بن المثنى فهزمه عنترة ، فأرسل جيشاً آخر بقيادة خداش بن علاثة فهزمه عنترة أيضاً ، وأسر خداشا ؛ فقال الملك الأسود : ما بلى أحد بمثل ما بليت به ، ثم أطرق كأنه يفكر ، فقال حصن بن حذيفة : أيها الملك ؛ لم يبق إلا أن تجمع العرب وتسير فيهم إلى هذا العبد اللئيم ، فقال الوزير : أما تستحيي من نفسك ؟ كيف يخرج ملك كبير مثل ملكنا فى هذه الجموع من العرب إلى عبد زنيم كعنترة ؟ وقد يتحصن بالجبال ، ويقتل من عنده من الأسرى ، ولا تنال هذه الجيوش منه نيلا ، وأرى أن يسعى الملك فى خلاص من عنده من الأسرى ، وبعد ذلك يرسل إليه جيشاً من جنده ، على رأسه فارس مشهور بالشجاعة والإقدام ، فاستراح الملك لرأى وزيره وقال له : دبر لنا من نبعثه إلى عنترة ، ليكتب إلينا بما يشاء من الفدية ،

فقال الوزير : سمعا وطاعة ، وهأنذا ماض إلى تنفيذ ما أمرت به . وانفض المجلس ، وذهب كل إلى سبيله ، ومضى الوزير إلى منزله وهو يفكر فى الكتابة إلى عنترة ليعلمه بما جرى ، وإذا بعبيده قد دخلوا عليه وأخبروه أن عبداً رسولا قادماً من عند عنترة يريدك ، وفى الصباح أخذ الكتاب والعبد ، ومضى إلى مجلس الملك الأسود ، فدخل عليه ، وأخبره أن هذا الكتاب أرسله عنترة مع عبدله بالباب ، وناوله إياه ، فرده إليه وأمره أن يفضه ويقرأه ، فقرأه على مسمع من الحاضرين ، فغطاهم وجوم من الغضب والحسرة ، لما كان فى الكتاب من تهديد ووعيد وأمر الملك أن يحضروا إليه العبد الذى جاء بهذا الكتاب من عند عنترة ؛ فلما حضر سأله : ماذا يفعل عنترة الآن ؟ فقال العبد — وكان شجاعاً جريئاً لا يهاب أحداً — : ينعم الآن بإقامة الولائم ، وباللعب والمرح ، ومراده أن يقتل رجالك ، وينهب أموالك ، جزاء بما أجرت حصن بن حذيفة . فقال الأسود ألم يكفه ما نهب من الأموال حتى يطلب منى غيرها ؟ ! فقال : إن سيدى عنترة لا تكفيه الدنيا بما فيها إلا أن يقتل حصن بن حذيفة ، وإن سيدى فارس شجاع لا يغلبه أحد ، وهو إلى ذلك ندىّ الكف سخىّ جواد ، صادق وفىّ عفيف ، ذو مروءة عظيمة وخلق كريم ، ويشهد الحاضرون على صدقى ، فشهد جميعهم لعنترة بالكرم والمروءة وحسن الشيم ، فقال الأسود : يحق له حينئذ أن يطلب ما يشاء من الأموال ، ثم التفت إلى

الحاضرين وقال لهم : ماذا ترون الآن أن نفعله ؟ فقال بنو شيبان : علينا فدية فارسنا خداش ، وقال بنو سليم : وعلينا أيضاً فدية عاطل والمرقال ، فقال الأسود : ذلك ما لا يكون ، لأنى أنا الذى دعوتهم إلى قتال هؤلاء الأعداء ، وأنا السبب فيما حل بهم من البلاء ، ثم أمر عبيده أن يحضروا ما طلبه عنترة فى كتابه ، فلما حضر المال تحسر الملك الأسود ، واتقدت أحشاؤه غما ، وقال : هذا المال سأرسله إلى عنترة على الرغم منى ، وسيزداد عنترة فينا طمعاً ، وسيقول : لولا ضعف الملك الأسود وخوفه منى ما أرسل هذه الفدية ؛ فدبر يا وزير الأمر ، وانظر فيمن تختاره لترسل هذا المال معه إلى عنترة ، فقال الوزير : ليس لهذا الأمر إلا رجل فصيح اللسان ، راجح العقل ، صادق الرأى ، يحب الإصلاح والتوفيق ؛ ولا أختار له إلا المنهال — وكان هذا يحب عنترة ، فاختاره الوزير ليجدد عهده به ، ويخبره بكل ما جرى — فرضى الملك بما أشار وزيره ، وأمر المنهال أن يأخذ المال فى صحبة من يشاء من الرجال ، فصدع بأمره ، رضىّ النفس مسرور الفؤاد ، ولما هم بالمسير أقبل إليه حصن بن حذيفة إقبال المشير الناصح ، والنابه المجرب فقال : يا منهال ؛ خوّف عنترة ، وبلغه أن الملك الأسود عنده جموع من فرسان العرب لا يحصيها العد ، وأن الملك كسرى سيرسل إليه مددا يسد الأفق ، فاغتاظ المنهال ، والتفت إليه التفاتة كلها سخرية وازدراء ، ولم يجبه بكلمة ، وتركه ورحل ، وأمر عبد عنترة أن

يسبقه ، ويخبره بقدومه ،وأن الفدية معه . فسبقه العبد ، وأخبره بأن المنهال آت إليه ، ومعه ما طلب من المال .

فرح عنترة وركب هو ومن عنده من الرجال ، وهم سبيع اليمن ، وميسرة ، وعروة ، وعامر بن الطفيل ، وملاعب الأسنة ، وقيس ، والربيع ابن زياد ، وعمرو بن مالك، وأكابر بنى عبس، وبنى عامر وبنى غنى ، وبنى كلاب ؛ لأن عنترة يحب الأمير المنهال ، فاستقبلوه أكرم استقبال ورجعوا به إلى منازلهم فى الجبال ، وأغدقوا عليه وعلى من معه من كرم الضيافة ما يليق بهم وبه ثلاثة أيام . وسأله عنترة عن أحوال الأسود وأعدائه فقال : إنهم لا ينامون الليل ، وهم من شدة خوفهم منك فى همّ وويل ؛ فابتهج عنترة وقال : أود أن تقول للملك الأسود : إن عنترة يقول لك : لمَ لمْ ترسل إليه حصن بن حذيفة ، وسنان بن أبى حارثة ، حتى أرجع عنه ، وينتهى ما بينى وبينه ؟ فهما سبب ما هو فيه من شدة وضيق ، ولولا أنه أجارهما ما تعرضت له ، ولا طرقت دياره، فقال المنهال : الزم موقفك هذا ولا عتب عليك ، ثم أطلق الأسرى وودعه ومن معه خير وداع ، بعد ثلاثة أيام قضاها فى ظلال الكرم والإجلال .

وتقدم الربيع إلى عنترة بوجه ضاحك وقال : هنئت يابن العم بما أخذت من المال ، لا زلت أبد الدهر ظافراً منصوراً . فابتسم عنترة ضاحكا من هذا النفاق ، وتلك التهنئة الكاذبة ، لأنه يعلم أن الربيع لو تمكن منه

لشرب من دمه ، وسايره على نفاقه وكذبه ، وقال : ما فعلت يا ربيع إلا ما أوحى به إلىّ طبعى ومروءتى وشرفى ، على أننى ما ضربت إلا بسيوفكم ، وما غلبت إلا بقلوبكم وعزائمكم ، فعجب قيس من إجابة عنترة ، وضحك الربيع ، وأدرك أن هذه الإجابة من وحى الحلم الذى اتسع له صدر عنترة ، إذ يعلم ما فعله به الربيع من غدر وخيانة ، كلما سنحت له فرصة ، ومع ذلك فقد ضرب عنه صفحاً ، وأجابه بما يرضيه .

* * *

رجع المنهال ومعه الأسرى وخيلهم وأسلحتهم ، ففرحوا بقدومهم ، وأخبروهم بما جرى من عنترة لهم ولجيوشهم ، ثم سأل الأسود المنهال عن شأن عنترة الآن فبلغه ما حدثه به عنترة وكان ذلك على مسمع من الملوك والسادة الحاضرين . فلما انتهى المنهال من حديثه انتفض ذو الخمار انتفاضة ذات قوة وغضب وقال : أنا له ولأمثاله ، والله لن يخرج إلى عنترة هذه النوبة أحد غيرى ، وسأريكم ما يكون من بأسى وقوتى ! فقال وهب ابن موهوب : إذا خرج ابن عمى ذو الخمار خرجت برجالى معه ، وأرسل أنت أيها الملك معنا من تشاء من الفرسان والجيوش ، وبذلك نستطيع أن نغلبه ونقهره . فقال عاطل لذى الخمار : أرى ألا تتعرض لعنترة ، فلست أنت من رجاله ، ولو اجتمع عليه العرب ما جروا فى غباره . فقال ذو الخمار : ستسمع يا عاطل أن ذا الخمار قتل عنترة ، وترك لحمه للوحوش الضارية . فنادى الملك الأسود بين العرب أن ذا الخمار سائر لقتال عنترة ،

ففرح العرب لأنهم يعلمون أن ذا الخمار تحت الغبار يعد بسبعة آلاف من الفرسان ، ثم التفت ذو الخمار إلى عاطل وقال له : لقد أخطأت معى إذ سويتنى بأمثالك ، وظننت أن عنترة ما دام قد أسرك ! فهو قادر على أن يأسر مثلى ، فاعلم يا عاطل أنه ما كل كتف يؤكل لحمه ، وما كل حمى تنتهك حرمته ، وسوف ترى ما أنا فاعل به . فقال عاطل : ما قلت إلا ما علمت ، وما نطقت إلا بما رأيت ، وسوف تراه بعينيك ، وأما عنترة فيما أرى ، فلن يخيفه أحد ، وما جيوشكم هذه إلا فانية أمام جولة من جولاته ، ولقد قال إذا أراد الملك الأسود أن أرجع عنه فليرسل إلىّ حصن ابن حذيفة ، وسنان بن أبى حارثة . فلما سمع الأسود هذا الكلام امتقع لونه ، واضطرب فكره ، ثم قال : أما كفى عنترة أنه قتل فى ابنه أكثر من أربعة آلاف ، إنه لو جاءنى وقص علىّ قصته ، لكنت معه وأخذت له بثأر ابنه ، ثم التفت إلى حصن وسنان وقال : أنتما طلبة عنترة، وأنتما سبب هذه النكبات المتلاحقة ، ولا ينبغى أن تقعدوا قعدة العجوز فى محرابها ، والواجب يقضى عليكم أن تشتركوا فى إخماد نار أشعلتموها ، وزدتم سعيرها فليجمع كل منكم قومه ورجاله ، وليخرج من الغد لقتال عنترة ، مع من يخرجون إليه من بقية الملوك الذين لا ذنب لهم ولا جريرة . فاصفر لون حصن ، وارتعدت فرائصه ، واضطربت أعصابه ، فقال الأسود : لا تفزع يا حصن ، فإن معاك بنى شيبان ، وهم ثلاثون ألفا ، وسبيع بن الحارث

ووهب بن موهوب فى ثلاثين ألفا ، وأنتم فى خمسة آلاف ، وأظن أن عددكم هذا يعجز عن لقائه عنترة ومن معه من بنى عبس وأعوانه . فإذا تمكنتم منه فاقتلوه ، وائتونى برأسه ، وانهبوا الأموال ، واسبوا الحريم ، ودمروا كل شىء لعنترة وقومه . فاطمأن حصن بعض الاطمئنان .

٦

تأهب جيش عدته ستون ألفا للمسير ، وفيه أبطال صناديد من أمثال ذى الخمار ، ووهب بن موهوب ، وعاطل بن المثنى ، والمرقال ، وحصن ابن حذيفة ، وخداش بن جابر ، وصفوان بن سعيد ، وغيرهم ، فودعوا الملك الأسود ، وركبوا مسالك البيد إلى عنترة . وخاف الوزير عمر بن نفيلة على عنترة ، فكتب إليه كتاباً وضح له فيه كل شىء ، وبعثه مع عبده سالم سرا ، فانطلق به كالبرق ، ووجد عنترة جالساً على باب مضربه ، فسلم عليه وناوله كتاب الوزير ، فأخذه عروة وقرأه ، ثم أمره أن يكتب إلى الوزير كتاباً يشكره ويحمد له فضله ومروءته ويقول : إن سار كسرى وقيصر ، والأسود، ومن يتبعهم من الملوك ، فى جيوشهم وأنصارهم ، أنزلت بهم الهوان والمذلة ، وسوف ترى ما تقر به عينك ، فكتب عروة الكتاب وناوله العبد سالما فأخذه وانفلت إليه ولم يشعر به أحد . ثم نهض عنترة إلى

الملك قيس ، وكان معه جماعة من أصحابه ، من بنى عبس ، وعامر ، وكلاب ، فسلم عليهم ، وقص عليهم قصة هذا الكتاب وما حواه ، وقال لهم : ماذا أنتم فاعلون ؟ فقال الملك قيس : لا يقعد أحد منا عن القتال هذه النوبة ، ولننفر جميعاً ، فقال عنترة : هذه جيوش لاحصر لها ، ونحن فى قلة من الرجال ، وأخشى إن تركنا منازلنا خالية أن يغير عليها أحد ، فينهب المال ويسبى الحريم والعيال ، وهذه الجيوش لا بد أن تكون أمامها طليعة ، وقد عزمت على أن آخذ معى مازنا ، وسبيع اليمن ، وميسرة ، ومائتى فارس ، فأقتل مقدم الطليعة ، وأمزق شملها ، وتلك قاصمة الظهر ، ومبيدة لعزائم الجيش ، ومضيعة لما عسى أن يكون فيهم من ثبات وحماسة ، فقال الملك قيس : افعل ما شئت ، ولما مضى عنترة برجاله أمر الملك قيس أن يتأهب جميع من فى المنازل للقتال ، وأن يحرسوا رءوس الجبال ، لملاقاة ما عسى أن يكون من غارة باغتة .

أما جيش الملك الأسود ، فإنه ما زال سائراً حتى أشرف على الجبال ، وكان فى طليعته خداش وعاطل والمرقال ، فانتظر الجيش وتقدمت طليعته حتى رأت رجال عنترة ، فأرسل عاطل إلى وهب رسولا يخبره أنهم أشرفوا على طليعة عنترة . وحينئذ انفلت عنترة وفرسانه من فم الوادى إلى الطليعة كأنهم قذائف نار مستعرة ، وهجم عنترة على عاطل فأفزعه وقال له : لو كنت كلباً لكنت أوفى منك الآن ، أؤنجيك من مخالب الموت بالأمس ،

ثم تأتى لتحاربنى فى وضح الشمس ؟ ! وما فرغ من قوله هذا حتى وقعت نبلة فى جواد عاطل فنفضه عن ظهره وأكبه على الأرض ، فذهل عنترة وتحير ، وإذا بأخيه شيبوب قد برك على صدره وكتفه ، وقال لأخيه : هذا أسيرى ، لأننى أنا الذى رميت جواده ، فضحك عنترة ، وتركه إلى فرسان الطليعة ، فأسال منهم الدماء ، وبعثر الرءوس والأشلاء ، ففزعوا وولوا مدبرين ، ولكن سبيع اليمن كان قد أسر المرقال ، وأسر ميسرة بن عنترة خداش بن جابر ، فجمعوا الغنائم وساقوا الأسرى ، ورجعوا إلى منازلهم فى الجبال ، وفرح قيس ومن معه من السادة والأكابر فرحاً عظيما ، وملئوا مسامع عنترة بالثناء الجميل ، وأمر عنترة أن يضرب عاطل وخداش والمرقال فى معتقلهم ضرباً وجيعاً ، لتجردهم من الوفاء والمروءة ، وبات عنترة وبنو عبس تلك الليلة فى بهجة وانشراح ، ولما أشرقت غرة الصباح قال عنترة للملك قيس : قد رأيت أن تأمر الرجال أن يتأهبوا للكفاح ، ويخرجوا إلى الجبال ولا يبقى فى المنازل إلا الحريم والعيال ، فصدعوا بالأمر وخرجوا ، وأنزلهم عنترة فى أمكنة بعيدة عن المنازل بمقدار فرسخين ، وقال لهم : لا تبعدوا عن المنازل لتكون تحت حسكم وحمايتكم ، وانتظروا أعداءكم فى أمكنتكم هذه .

* * *

وصل رسول عاطل إلى وهب بأن الطليعة وقعت فى يد عنترة ، فنهض



النبلة تصيب جواد عاطل فينفضه من على ظهره

الجيش ، وساروا يتدفقون تدفق السيل ، وقد امتلأت بهم جوانب الأرض وما لبثوا غير ساعة من مسيرهم حتى عاد إليهم الهاربون من الطليعة ، فى حال بئيسة ، فسألوهم عما حل بهم فقالوا : لقينا عنترة فى مائتى فارس ، فأسر خداشا والمرقال وعاطلا ، وقتل منا من قتل ، وفعل بنا ما نحن فيه الآن ، ولولا هربنا ما نجونا من يده ، فضاق صدر ذى الخمار وقال : ما هذه إلا كبرى المصائب ، وما نحن بتاركيهم حتى نوردهم شر المعاطب وجدوا فى مسيرهم حتى أشرفوا على بنى عبس وعنترة ، وكان قد نظم رجاله ورتب جماعته ، فجعل منهم ميمنة وميسرة ، وقلبا وجناحين ، وجعل فى الميمنة عامر بن الطفيل ، وملاعب الأسنة ، وفى الميسرة علقمة بن علاثة والأخوص بن جعفر ، والملك قيسا بين القبيلتين ، وبنى عبس فى الجناحين ووقف هو فى مائتى فارس وسط الميدان ، فلما تراءى الجمعان وجد سبيع عنترة متكئاً على رمحه ، وقد ثنى رجله على قربوس سرج جواده ، ينتظر بدء القتال ، فاختار سبيع ألفى فارس من بنى حمير ، وتقدم هو إلى عنترة، ليبين لأقرانه مبلغ فروسيته ، فلما رآه عنترة مقبلا إليه ، وضع رجله فى الركاب ، ونزع رمحه من التراب ، وصاح فى بنى عمه صيحة التأهب والكفاح ، وصاح سبيع فى جيشه أيضاً صيحة عالية ، والتحم الجيشان ، ونفقت سوق المنايا ، واشتد الخطب حتى أنكر الرفيق رفيقه ، وبعد ساعة كان بنو حمير قد نفد عزمهم ، وقل صبرهم ، وقتل كثير منهم ، فرجعوا

على أعقابهم ، أما عنترة وسبيع فما زالا يتصاولان حتى انقضى النهار ، فافترقا وذهب كل منهما إلى خيامه . وقد سأله قيس عن خصمه فقال : لقد كان أشجع من رأيت ، وكنت أود ألا أفارقه حتى يقع فى أسرى ، ولكنى خشيت عليكم كثرة العرب ، فأرجأته إلى ضوء النهار ! ثم تولى حراسة قومه ، هو وابنه ميسرة وعروة ، وبعض من رجاله ، أما سبيع بن الحارث فقد وجد جيشه قد قتل منه ألفان ، فغضب على فرسانه وقال : كيف تغلبون لبنى عبس ، وهم أقل منكم عدداً ، ولولا اشتغالى بعنترة لهزمت بنى عبس هزيمة منكرة ، ثم سأله وهب عن خصمه ، فقال : لن يجود الزمان بمثله ، فى شجاعته وقوته ومهارته وكثرة خبرته . ثم تولى حراسة من معه هو وبعض رجاله .

وفى الصباح تأهب الفريقان للقتال ، وقبل أن تدور رحاه دعا وهب وسبيع بن الحارث إليهما رجلا فصيح اللسان شجاعاً اسمه سعد بن كثير ، فقال له سبيع : اذهب إلى عنترة وقل له : يسلم عليك سبيع بن الحارث ويحييك ، وما أرسلنى بهذه الرسالة إلا رحمة بك وعطفاً عليك ، ويقول : إن الأبطال تضن بالأبطال ، وتكره لهم مكاره الحوادث ، ومن لم يعرف أقدار الناس ، ولم ينزلهم منازلهم كان القتل به أجدر ، وليس بينى وبينك دم ، ولكن الملك الأسود ندبنى إلى قتالك ، وقد ذقت منى بالأمس ما روعك وأفزعك فإن اعتبرت به ، وأردت أن تحقن دمك فسلم نفسك لى ، لأرجع بك إلى

الملك الأسود ، وقد أصررت على ألا أتركك ، ولا بد من أسرك أو هلاكك فقال سعد : سمعا وطاعة ، ثم جرى حتى كان بين يدى عنترة ، فقال : عندى لك كلام ، ولكنى لن أقوله حتى تعطينى الأمان ، فابتسم عنترة ومنحه الأمان ، وأذن له أن يقول ما يشاء ، فبلغه سعد بن كثير رسالة سبيع بنصها وفصها ، فضحك عنترة حتى استلقى على ظهره وقال : لقد طبع الله على قلبه ، فسولت له نفسه أن يطلب المحال ، ولقد نسى أنى أعتقته ثلاث مرات ، ولقد ظلم نفسه بأن كفل للأسود قتلى أو أسرى ، وأنا قد كفلت للملك قيس قتله أو أسره ، وسيعلم من الغالب منا ، وهذه الجموع الكثيرة من الفرسان ما هى عندى إلا قطعان من الغنم ، أذبحها وأفرقها كما أشاء ، ويبدو لى أنه قبل أن يطلب منى تسليم نفسى إليه ، قد سلم هو عقله ، فأصبح لا يفهم الصواب من الخطأ ، ولا يعرف الرشد من الغى ، ومثل هذا لا ينفعه إلا حد الحسام . فارجع إليه يا هذا ، وبلغه ما سمعت ووعيت . فعاد الرسول وبلغه جميع ما سمع ، فأصر على أن يبرز إليه . ولح عنترة حصن بن حذيفة فى الميمنة ، فأغار عليها غارة شعواء ، وتبعه أبطاله وفرسانه ، وأدرك حصن أن عنترة يطلبه ، فلجأ إلى الفرار والهزيمة ، وتبعه بنو فزارة من قسوة ما حل بهم من الفناء ، ورآهم بنو شيبان هاربين ، فلحقوا بهم ، وفروا من الميدان خائفين ، ولما انتهى من الميمنة رجع إلى القلب وكان فيه وهب بن موهوب .

أما ذو الخمار فإنه لما رأى عنترة فى الميمنة ، أغار هو على ميسرة بنى عبس فهزمها ، وفرق فرسانها ، ثم رجع يطلب القلب وكان فيه الملك قيس وإخوته ، والربيع بن زياد وعشيرته ، فما كاد يبدأ حملته حتى سمع الضجة من خلفه ، فالتفت ينظر ما جرى ، فألفى عنترة ينهب بسيفه الأرواح نهباً فتلقاه ذو الخمار ، واشتبك الفريقان ، وكان القتال أشد ما رأته العين ، وكان بنو عبس قد فاقوا أعداءهم ، وظهروا عليهم . ورأى سبيع أن جماعته قد بدا ميلهم إلى عنترة ، والنفور من قتاله ، فبرز له فى الميدان ، وكانا كأنهما أسدان يقتتلان ، وما سمع أحد ولا رأى أعجب مما جرى بينهما ، من جلاد وكفاح ، وإدبار وإقبال ، وافتراق والتصاق ، واستمرا على ذلك حتى غربت شمس النهار ، وأقبل ذو الخمار إلى عنترة وقال له : يكفيك ما شاهدت منى فى الميدان ، فهل لك أن تصفح ، لتستريح من هذه المبارزة؟ فقال عنترة : دع عنك هذا القول ، وعد بنا إلى المبارزة ، فإنى عازم ألا أتركك حتى أبلغ منك ما أريد ، فقال ذو الخمار : هيا إلى الجلاد يابن شداد ؛ ثم استمرا فى المبارزة حتى مضى من الليل نصفه إلا قليلا ، وكان ذو الخمار قد تعب وأضناه الكفاح ، فضربه عنترة بزجاج الرمح فى صدره فألقاه عن ظهر جواده فى مكان بعيد ، وإذا بشيبوب قد انقض عليه ، وكتفه بحبل منقوع فى الخل أعده لمثل ذلك ، ورأى الأعداء أن ذا الخمار قد أسره عنترة فانقضوا على بنى عبس وأثاروها حرباً مستعرة ، دامت إلى

ضحوة النهار ، وأحس فيها الأعداء ضيقاً وذلاً ، ويئسوا من فوزهم على عنترة ففروا هاربين ، وأسر بنو عبس أكثر من خمسمائة ، وجمعوا الأموال والأسلاب ورجعوا بها إلى منازلهم فى الجبلين فرحين بما أوتوا من نصر مبين . ولما وصلوا إلى منازلهم وجدوها قاعا صفصفا ، وبينما هم فى غمهم ودهشتهم نزل إليهم من أعلى الجبل عبد هارب ، فسألوه عما جرى فى ديارهم فقال : أغارت علينا خيل فى السحر ، ونزلت فينا نزول القدر ، وكانوا ينادون : يا لشيبان ! فأخذوا ما فى الديار من أموال ، وسبوا الحريم والعيال ، وتركوها خراباً كما ترون .

٧

انتهز بنو شيبان فرصة غياب عنترة فى الميدان ، وانشغاله بمبارزة ذى الخمار ، فقال سنان بن عبد العزى إلى وهب بن موهوب : هيا بنا فى خمسة آلاف من خيار فرساننا إلى منازل بنى عبس فى الجبلين ، وهى خالية الآن من الفرسان ، فننهب الأموال ونسبى الحريم والعيال ، ونطير بها إلى الحيرة ، فإذا طلبونا لم يدركونا ، ونكون إذ ذاك بين يدى الملك الأسود ، وكذلك فعلوا ما دبروا ، ولكن القدر كان لهم بالمرصاد ، فإن عنترة لم يمهل قومه حتى أمرهم بالسير من ورائهم ، وجدوا فى المسير حتى أدركوهم قبل أن يصلوا

إلى الحيرة ، وهناك صب عليهم الموت صبا ، فلم يجدوا لهم مخلصا إلا الهرب فى القفار وترك ما كانوا قد أخذوه وأسروه ، وكان ذو الخمار يعاونه ، لأنه أصبح من أحب الأصدقاء إلى عنترة ، وذلك أنه لما كان أسيراً فى قيوده وسمع ما قصه العبد الهارب على عنترة من الإغارة على الديار ليلا ، ونهب الأموال وسبى الحريم قال ذو الخمار لعنترة : يا حامية بنى عبس ، هل لك أن تعفو عنى هذه النوبة ، على أن أكون لك خادماً أميناً وصديقاً وفياً ، ومعيناً فى الشدائد والملمات ؛ وأؤكد لك أنى مخلص لك ، صادق فيما أعدك به ، ولا أضمر لك كيداً ولا شراً . ففرح عنترة به ، وأطلق سراحه ، وضمه إلى صدره ، وأعطاه جواده وسلاحه ، وأصبح كأنه واحد من بنى عبس ؛ ثم نادى ذو الخمار فى بنى عبس ، وفى الأسرى من بنى حمير قائلا : إن عنترة أطلقنى من أسرى ، وآمننى من خوفى ، وأصبحت له أخاً معيناً ، وصديقاً وفياً ، أموت وأحيا فى سبيل رضاه ؛ وقد فرح الأسرى من بنى حمير ، وأعلنوا ميلهم إلى عنترة وصداقتهم له ، فأطلقهم من أسرهم ، ورد إليهم جيادهم وأسلحتهم ، وساروا معه إلى بنى شيبان . وهناك خاض ذو الخمار المعركة وكان ينادى : يالحمير ! فسمعه الملك وهب بن موهوب ، ورأى أنه أخلص لعنترة وصادقه ، فقال : لبيك يا ذا الخمار ؛ نحن معك فى جيش عنترة ، ونحن أحباؤه ، وأعوانه على أعدائه ، وكان نصر عنترة نصراً مبيناً ، فرد الأموال والسبايا ، وغنم من الأعداء أموالاً

كثيرة ، وفروا لائذين بالقفار . وكان أولهم حصن بن حذيفة الذى كان يستحث جواده ويقول : لعن الله من كان سبباً فى هذا السفر . ثم التقى وهب بعنترة وصافحه وشكره عنترة على ما بذله من معونة ، ثم جمعوا الغنائم ورجعوا إلى منازلهم بالجبلين ، وكانت عبلة فى جملة المسبيات ، فخلصها عنترة فى عاجل أمره ، وأركبها ناقة فى هودج كريم وعاد بها مع غيرها من الحريم . وهناك أعطى بنى حمير نصف الغنيمة ، وأقاموا فى تلك المنازل فى عيشة راضية ، وبلغت عدتهم إذ ذاك آلافاً كثيرة . وقال الملك وهب : ما هذه النعمة وهذا النصر إلا بفضلك يا عنترة ، فقال : الفضل منكم وإليكم وإلى هؤلاء السادة ، وأشار بيده إلى بنى عامر وبنى حمير ، فشكر له عظيم خلقه ، وكريم سجاياه .

* * *

كان الملك الأسود يجلس إلى حاشيته ولا حديث له إلا أن عنترة ورجاله سيأتونه أذلة ، وأن ذا الخمار سيقطع دابره ودابر قومه ، حتى أقبلت إليه فلول جيشه ، وهم يصيحون : الغوث ! الغوث ! وفيهم خداش ، وعاطل ، والمرقال ، وجميعهم فى أبأس حال ، ولما قصوا عليه ما وقع ، ابتأس وجزع ، وخر الأسود صعقا ، ولما أفاق قال لوزيره عمر بن نفيلة : أرأيت كيف أذلنا هذا العبد الحقير ؟ ! إننى لا أجد الآن وسيلة إلى قهره ، إلا أن أستصرخ كسرى وجنوده ، ولكنى أخشى أن يرمينى بالعجز والتقصير

ويقول : أين جندك ؟ ! وأين جند من تحت يدك من ملوك العرب ؟ ! وإذا كان هذا حالك أمام صعلوك حقير ، فكيف يكون شأنك إذا شاققت ملكاً كبيراً ؟ ! فقال الوزير : لا تقل أيها الملك إن الذى أعجزنا عبد أو صعلوك حقير ، فوالله ما أعجزنا إلا عنترة بن شداد ، وهو بطل صنديد ، وجبار عنيد ، ومن ورائه بنو عبس وأصحابهم ، وجميعهم أسود كواسر ، لا يشق لهم فى الشجاعة غبار ، وقد انضم إليهم ذو الخمار ووهب ابن موهوب وفرسان بنى حمير . فإن أنت سرت إليهم بعد ذلك فقد ضيعت ملكك ، وما أنت بعد ذلك إلا ملوم ، فتقدم إليه حينئذ شيخ عربى وقال : أيها الملك . من لم ينظر فى العواقب فما له فى الدهر صاحب ، وإن أردت أن تقهر عنترة فعليك بفارس دهره : الهامان بن علقمة الهمدانى ، فهو الذى يدفع عنك شر عنترة وغيره ، وإن لم يأتك هذا الفارس ، فارحل من ديارك واتركها لعنترة بن شداد . وكان الهامان بن علقمة هذا فارساً جباراً ، خافه العرب ، وجعلوا له عليهم جزية ، يؤدونها له كل عام ، دَرءاً لشره وبغيه ، وله عند عنترة دم ، لأنه قتل أخا له وابن عمه ، وجماعة من كبار قومه ، وكان ابن عمه هذا يسمى الملجاج ، وكانت والدة الملجاج هذا لا تكف عن البكاء ، ولا تجعل الهامان يهنأ بطعامه وشرابه ، وكان يخفف عنها جزعها ويقول : اصبرى ولا تجزعى ، فسأثأر لابنك ولأخى ، وأقتل عنترة هذا ، أو أحضره بين يديك أسيراً مهاناً . فتقول : لن يذهب عنى

الحزن حتى تثأر لابنى بقتل قيس بن زهير أو واحد من إخوته ، أو عنترة ابن شداد ، أو تحضره بين يدى لآكل قطعة من لحمه ، وأشرب من دمه

وما زال ذلك الشيخ يغرى الملك الأسود أن يستنجد بهذا الفارس حتى رضى وكتب إليه الكتاب الآتى : اعلم أيها الفارس العظيم ، أن عنترة بن شداد اعتدى علينا وبغى ، فقتل رجالنا ، ونهب أموالنا ، ولا يزال مصراً على إعناتنا وشق عصا الطاعة ، وقد أغلقت فى وجهى سبل الإنقاذ ، وقد ذكرت عندى بالشجاعة والبطولة ، والسبق إلى إغاثة الملهوف ، فكتبت إليك هذا الكتاب ، لتدفع عنا بسيفك هذا البلاء ، وتقينا شر عنترة بن شداد ، ولك عندنا ما يسر فؤادك ، وتقر به عينك . ثم طوى الكتاب ، وبعث به فارساً من فرسان عشيرته ، ولما وصل إلى جبال مساور وأرض همدان وجد القبائل فى بسطة من الغنى والرخاء ، لكثرة غاراتهم ومغانمهم ، فأحاط به الرعاة ، وسألوه عما يريده ، فقال : إنى رسول الملك الأسود إلى الفارس العظيم ، الهامان بن علقمة الهمدانى . فقالوا : أهلا وسهلا ؛ ثم أخذوه إلى فارسهم وكان إذ ذاك فى وليمة جمعت سادات العشيرة وأبطالها ، وبين أيديهم إماء يضربن بالدفوف ، وعبيد يلعبون بالسيوف ، فقيل له : رسول من الملك الأسود يستأذنك فى الحضور إليك ، فأذن له ، ولما كان بين يديه عرض عليه الكتاب ، فالتفت إلى غلمانه وقال : خذوا هذا الرسول إلى مكان الضيافة ، وأكرموه إكراماً سابغاً . وبعد أن انتهى من وليمته دعا إليه أكابر

دولته ، ومن يعتمد عليهم فى مشورته ، ثم أمر أن يحضر إليه رسول الملك الأسود. فلما حضر ناوله الكتاب ، فأخذه وسلمه إلى من يقرؤه ، فلما قرئ الكتاب عليهم قال الهامان : وهل قوى عنترة حتى جرؤ على أن يشاقق الملك الأسود ويقتل رجاله وينهب أمواله ؟ فقال : بلغ من القوة والجرأة إلى الحد الذى أفزع العرب ، فقال : وفى كم فارس هذا الرجل ؟ وفى أى مكان نزل ؟ فقال : إنه فى خمسة عشر ألف فارس جميعهم أبطال صناديد وفيهم كثير من أمثال سبيع بن الحارث الحميرى ، وغشم بن مالك العامرى وعامر بن الطفيل ، وعلقمة بن علاثة ، ومروان بن سراقة ، وقد عجز أمام سيفه كل بطل صنديد ، فقال الهامان : ذلك رجل فريد عصره ، والناس رجلان : رجل يصف نفسه ، ويتحدث عنها ، ورجل يصفه الناس ويتحدثون عنه ، ومن افتخر بغير ما هو فيه فضحته الحوادث ، وأنا إن سرت إليه ، وظهرت عليه ، رفعت ذكرى ، وبنيت مجدى ، وأصبحت ذا قول مسموع ، وأمر نافذ ، بين قبائل العرب ، وأكون قد أخذت بثأر أخى وابن عمى ورجال عشيرتى ؛ ثم أمر فى الحال رجاله أن يتأهبوا للمسير ، وخلف على الحلة ، عمه الخاطف بن قدامة ، وغاص فى عدة كفاحه من درع سابغة ، ومغفر وبيضة ، وسيف هندى ، ورمح سمهرية ، وركب جواده ، وسار فى فرسانه ، حتى وصلوا إلى الحيرة ، وبلغ الملك الأسود نبأ قدومه ، فخرج فى جماعة من أكابر دولته وعشيرته ، واستقبلوه

فى حفاوة بالغة ، وفرح عظيم ، وأمر أن تقام له الخيام والسرادقات ، وتجهز بأنواع الفرش وأدوات الراحة ، ثم سار الملك بهم وأنزلهم منازلهم ، وبسط لهم يديه بالكرم والإنعام ، وذاع فى الحلل والعشائر خبرهم ، فأقيمت الأفراح فى كل مكان ، ورفرفت أعلام الزينة فى كل بقعة . وفى الصباح جلس الملك الأسود فى ديوانه يحيط به الملوك وسادات عشيرته وأبطال دولته ، وحضر إليه الهامان ، فقام جميعهم له ، وأجلسه الملك بجواره على سريره وأخذ يحدثه عن عنترة وما فعله ، ثم قال : وقد بعثت إليك ، لتكشف عنى هذه الغمة ، وتنفس عنى تلك الكربة ، وثقتنا فيك عظيمة ورجاؤنا فى النصر على يديك أعظم ، فقال الهامان : لقد سوّدْتَ عبدا ، ورفعت وضيعا ، وكبرت صغيرا فصار فارساً كبيراً ؛ وأنا يامولاى بهمتك سأسوقه ورجاله إليك مصفدين فى أغلال الأسر والمذلة ، فشكره الملك وأثنى عليه ، ومنحه الهدايا والخلع ، وكذلك منحه رؤساء القبائل كثيراً منها ، ثم استأذن الهامان وخرج إلى رجاله فى منزله . وأقبل الملك على وزيره عمر بن نفيلة وقال : إن سار هذا الفارس إلى عنترة وانتصر عليه ، بان ضعفنا وعجزنا ، وقال الناس : إن الملك الأسود أضعف قوة من فارس بنى همدان ، وكان هذا خزياً لنا على ممر الأيام ، وأرى أيها الوزير أن تخرج معه فى خمسين ألف فارس ، حتى يكون النصر منسوباً إلينا ، ويقول الناس : لولا وزير الأسود وجنوده ما انتصر على عنترة ، ففرح الوزير بخروجه إلى عنترة وقال

ذلك رأى سديد يا مولاى فعجل به ولا تبطئ ، وأمر الملك فى الحال بتجهيز هذا الجيش وإمداده بما يحتاج إليه من أسلحة وزاد وأموال .

* * *

سار الوزير عمر بن نفيلة إلى جانب الهامان فارس بنى همدان ، ومن ورائهما جيوشهما ، وركبوا مسالك البيد والقفر إلى حيث عنترة بن شداد وقومه وأتباعه . ورأى حصن بن حذيفة ذلك فقال لسنان بن حارثة ، هذه جيوش لا تعود إلا برأس عنترة ، بعد أن تسحق رجاله وأنصاره سحقا ، وكأن الهامان هذا ما خلق إلا ليقتل عنترة ، فقال سنان : لا تلق نفسك فى تيه من الضلال ، ولا تنطق بمثل هذا الهذيان ، فما هذه الأموال إلا هدية لعنترة ، وسترى رأس الهامان كرة تلعب بها أرجل الخيل ، وسيعود إلينا المهزومون بما تسمعه الآن منى .

ولما أقبل الليل قال الوزير : يحسن أن تنزل بالجنود فى هذا المكان ، ونبيت فيه إلى الصباح ، ليأخذ الجنود والدواب راحتهم ، ثم نستأنف المسير فى الصباح ، فقال الهامان ، ذلك خير لنا وأفضل ، وفى تلك الليلة كتب الوزير عمر بن نفيلة إلى عنترة كتاباً بين له فيه كل شىء ، ثم قال : وقد أرسلنى الملك مع الهامان فى خمسين ألف فارس ، وأرجو أن أكون فى صدر المحاربين لتنهب ما معنا من الأموال ، ويولى الجند من قدامك هاربين ، ويرجعوا إلى الحيرة مهزومين . وقد كتبت إليك هذا لتستعد إلى يوم اللقاء ،

ولتبلغ فى أعدائك ما تشاء . ثم طوى الكتاب وأنفذه مع عبده سالم ووصاه ألا يشعر به أحد . وأسرع العبد فى المسير حتى وصل إلى منازله ، وأخذه العبيد إلى سيدهم عنترة ، فلما رآه فرح به وأكرمه ، ثم خلا به وسأله عن حال سيده ، فناوله كتابه ، فدعا إليه عروة ، وأعطاه الكتاب فقرأه ، فشكروا للوزير جميل معروفه ، وكتب إليه يقول : طب نفساً أيها العزيز فإنى لا أبالى بجموعهم وإن كانت أضعاف ما جمعوا ، وأما أنت فأرجو من الله أن يديم لك العز والسعادة أبد الدهر، ثم أنعم على العبد ، وأعطاه الكتاب ، وأخرجه من المنازل دون أن يشعر به أحد . ثم مضى هو وعروة إلى الملك قيس بن زهير ، فوجد عنده ، وهب بن موهوب ، وسبيع بن الحارث ، والأخوص بن جعفر ، وملاعب الأسنة ، وعامر بن الطفيل ، وعلقمة بن علاثة ، فتلقوهما بالحفاوة والإجلال ، ثم أخذ عنترة يشرح لهم ما جاءه من أخبار الأعداء ، وأن الهامان الهمدانى والوزير عمر بن نفيلة قادمان فى هذه الجيوش الجرارة ، فقال عروة بن الورد : أشر علينا بما ترى فنحن نضن بأرواحنا ، فقال عنترة : أرى أن نخرج إلى ظاهر الجبال ، لنقاتلهم فى مكان بعيد عن الحريم والعيال ، فركب الفرسان وساروا ثلاثة فراسخ ، ثم أقاموا ينتظرون الجيوش المغيرة . وقال عنترة : سأكون طليعة لكم ، فقالوا : لا تفارقنا ، فربما دهينا وأنت بعيد عنا . فقال : الأمر يستوجب منى ذلك ، وسأكون على مقربة منكم ، فلا تخافوا . ثم سار فى

جماعة من الفرسان ، إلى غير بعيد ، ثم وقف ينتظر ، وأرسل بعض فرسانه ليكشفوا له خبر الجيش القادم ، فساروا حتى رأوه قادماً يموج بفرسانه وخيله موج البحار ، فأسرعوا عائدين وأخبروا عنترة بقدومه ، فرجع بهم إلى جيشه ورتبه ونظم وقفته ، وجعل فيه ميمنة وميسرة وقلباً وجناحين ، ووقف هو فى مقدمة الجيش ومعه سبيع ، وعامر ، وملاعب الأسنة ، والأخوص ، وميسرة ، وسبيع اليمن ، ومازن وعروة ، ولما أقبل الهامان بجيش الأسود وجيشه ورأى جيش عنترة قال للوزير عمر بن نفيلة : كيف نسير بهذه الجيوش التى تملأ الأرض إلى هذه الفئة القليلة ، إن فى ذلك تشريفاً لهم وتعظيما ، وحطة فينا وضعفاً ، فقال الوزير : لا تحتقر شأن هذه الفئة ، فهم الذين دوخوا الملك الأسود ومن عاونوه من الملوك . فكن على حذر منهم ولولا أنهم واثقون من أنفسهم ما خرجوا لاستقبال هذه الجيوش الجرارة . فقال الهامان : ومن هؤلاء حتى أحذرهم ، وأخشى لهم بأساً أو سلاحاً ؟ ! سترى ما أصبه عليهم من النكال والدمار . ثم دعا إليه ابن عم له ، اسمه درامة بن حنظلة . فارس بنى همدان ، الذى لا يقاومه إلا الهامان ، وقال له اذهب إلى هذا العبد الزنيم ، وقل له : يا عنترة ، لا يصاحب الزمان المرء على حال واحدة ، فيوم لك ، ويوم عليك ، ولست من رجال ابن عمى الهامان ، وينصح لك أن تسلم إليه نفسك ، ليصلح بينك وبين الملك الأسود ، فإن استكبر وأبى فاقتل من معه ، وائتنى به أسيرا ، فطار درامة

بجواده إلى عنترة ورفقته . وبلغه رسالة الهامان ابن عمه ، فهم عنترة أن ينقض عليه ، ولكن سبيع بن الحارث سبقه إليه وقال : دعه لى ، فإنه ليس من رجالك ، ثم وثب عليه وثبة أفزعته ، وطعنه فى صدره برمحه ، فأوقعه على الأرض قتيلا ، ورأى الهامان كيف قتل ابن عمه فطار بجواده إلى عنترة ، وقال : قضيتم على أنفسكم بالدمار ، بقتلكم ابن عمى ، فأبشروا بقطع الأعمار ، وخراب الديار ، فبرز إليه ذو الخمار وقال : أقصر عن هذا الهذيان ، فلا وقع له فى سمع الأبطال ، ثم قامت بينهما مبارزة حامية ، شخصت لها الأبصار ، وامتدت الأعناق ، ثم وكز ذو الخمار جواده بركابه ، فشب الجواد ، ونفض ذا الخمار عن ظهره ، فوقع على الأرض وغاصت يده فى التراب ، وأسرع الهامان إليه فربطه من عنقه فى حمائل سيفه وقاده أسيراً إلى جيشه ، ثم عاد إلى ميدان المبارزة ، فوثب إليه عنترة وقال : دونك والحسام . فقال الهامان : يا عنترة ، إن الأبطال تعشق الأبطال ، ولا يحبون لهم النكال ، ومثلك من يأسف عليه الإخوان ، إن أصابه بنوائبه الزمان ، وإنى أود لك العافية ، من كل شر وبائقة ، فسلم نفسك لى ، على أن أصلح بينك وبين الأسود ، وإلا قطعت رأسك ، وإن كان هذا عظيما عندى فى مثلك ، فضحك عنترة وقال : ليتك أكرمت نفسك ، ووقفت موقف البطولة الكريمة ، فأحققت حقاً ، وأبطلت باطلا ، ولكنك دعيت إلى الأسود فأجبت ، وكلفك أسرى

أو قتلى فلبيت ، وما عرفت حقاً من باطل ، ولا كرماً من لؤم ، ولا حسنة من سيئة ، ولئن كنت تقاتل الحق فى شخصى الآن ، فإنما تقاتله فى شخص كل إنسان ، فيما سلف وما يأتى من الأزمان ، ولهذا كان من غير اللائق أن يلام أحد يقول لك : إنك لست ببطل ، بل لست بإنسان . ووجب علىّ حينئذ أن ألزمك القتال والحرب . حتى أبلغ فيك المنال والمآرب . وبدأ التصاول والتجالد ، والتقارب والتباعد ، وتكاثف الغبار ، فطوراً يبتلعهما ، وطوراً يلفظهما والأحداق إليهما شاخصة ، والأنفاس فى الصدور معلقة ، حتى أقبل الليل بظلامه ، فقال الهامان لعنترة : لقد أسدل الليل ستائره فأرحنا فيه من الكفاح . لنعود إليه فى الصباح ، فقال عنترة : لا راحة حتى يبلغ أحدنا من صاحبه غرضه ، وإن كان لا بد منها فلنقعد فى هذه الساحة ، حتى يشرق النهار علينا بضوئه . فلم يجد الهامان مفراً من أن يستجيب له ، فركز كل منهما رمحه ، ونزل عن جواده ، وجلس على الأرض ، وجاء لكل منهما من أحضر له طعامه وشرابه ، وأخذ الجواد ليريحه ويطعمه ، وفى الصباح جىء إليهما بجواديهما ، وجعلا يتصاولان والناس منهما فى دهشة وحيرة حتى حان وقت الظهيرة ، ثم هجم عليه عنترة ، وقد وقف فى ركابه ، وفتح يده ليضرب خصمه ، وكان ثقله على ركابه الأيسر فانقطع حامل الركاب ووقع عنترة على الأرض ، فأسرع الهامان وجثم فوق صدره وأخذه أسيرا ، وكان انقطاع الحامل قدراً مقدوراً

مكّن الهامان من أسر عنترة ، بعد أن كان ينشد منه راحته ، وعنترة مصر على ألا راحة إلا أن يبلغ أحدهما من صاحبه أمله . ثم أمر بنى عمه أن يأخذوه ويكتفوه ، فلما رآه الوزير عمر بن نفيلة ، امتلأ صدره غماً وحزناً ولكنه أراد أن يخفيه فقال فى شماتة كاذبة : كيف رأيت مصيرك يا أسود؟ لقد حل بك الهلاك ، وذلك لتجبرك واستكبارك على الملوك متجاهلا أنك صعلوك ، فأبشر أيها العبد بالموت العاجل ، وكان عنترة يعرف ما فى نفس عمر بن نفيلة فلم يضق ذرعاً بما سمع . ثم أمر الوزير أن يقيدوه ويحرسوه حتى ينتهى من قتال العشائر ، وقف الهامان فى الميدان وقال : يا بنى عبس إن أردتم حماية أنفسكم وحفظ أرواحكم ونسائكم وعيالكم فاتركوا الحرب والقتال ، وأنا أكفل لكم الزمام والمسالمة من الملك الأسود ، فما كان يبغى من قتالكم إلا عنترة ، وقد أخذناه ، ونصيحتى لكم أن تكفوا عن الحرب ، وترجعوا إلى منازلكم سالمين .

وكان سبيع اليمن وعروة وميسرة فى جحيم من الحزن على عنترة . وأدركوا ألا قائمة لهم من بعده ، وبود كل منهم أن يلقى نفسه فى النار ليفتدى عنترة ، ثم وثب عروة إلى الميدان فجأة وهو يعلم أنه ليس من رجال الهامان ، ولكنه قال : لا حياة لى بعد فراق عنترة ، وكثر الصياح فى بنى عبس إشفاقاً عليه ، وجال معه فى الميدان جولات ضايقه فيها الهامان حتى أتعبه ، ثم جذبه بيده ، واقتلعه من سرج جواده ، وأسلمه إلى بنى عمه

أسيراً ، وهمّ ميسرة أن يبرز إليه ، فأقسم عليه الملك قيس ومنعه ، وحينئذ حمل بنو عبس حملة عنيفة ، واشتبك الفريقان ، ونفقت سوق المنايا ، وسالت الدماء ، وقطعت الرقاب ، ومزقت الصدور ، وصبر بنو عبس وعامر وحمير صبراً جميلا ، وأبلوا فى القتال بلاء حسناً حتّى جاء الظلام وانفصل الفريقان

وكان الوزير عمر بن نفيلة فى غم عظيم مما رأى ، فجاءه الهامان وقال له : إن بنى عبس متحصنة بالجبال ، وربما طال بيننا وبينهم القتال ، وأخشى أن تحين للأسرى فرصة الهرب ، فيتحول مجرى القتال ، ونصبح مغلوبين بعد أن كنا غالبين ، ولهذا فإنى سأبعث الأسرى فى مائتى فارس إلى الملك الأسود ، ثم أفرغ إلى قتال هذه العشائر ، حتّى أبيدها أو أشتتها فى القفار ، فثقل هذا الرأى على نفس الوزير ولكنه لم يجد سبيلا إلا أن يوافقه فدعا الهامان إليه فارساً اسمه فياض بن هلال وجعله على رأس مائتى فارس وسلمه عنترة وعروة وذا الخمار ، وأمره أن يسير بهم إلى الملك الأسود ، وقال له : إنك إن وصلتهم إليه فستحظى منه بجائزة سنية ، ولك معنا نصيبك من المغانم ، فقال : سمعا وطاعة ، وسار بهم .

أخذ الوزير يفكر كيف السبيل إلى نجاة عنترة ؟ واهتدى أخيراً إلى حيلة قويمة ، فكتب إلى الملك قيس كتاباً قال فيه : اعلم أيها الملك أن قلبى تستعر ناره ، حزناً على عنترة ، وما نزل بكم فى هذه المحنة القاسية ، وأخبرك أن الهامان قد بعث عنترة وعروة وذا الخمار إلى الملك الأسود فى



الهامان يأسر عنترة

مائتى فارس على رأسهم ابن عمه فياض بن هلال ، وقد سار بهم فى تلك الساعة ، وإذا ما وصلوا إلى الملك الأسود قتلهم ، وقد عول الهامان على أن يقاتلكم غدا ، ليقتل رجالكم ، وينهب أموالكم ، واسمع ما أشير به عليك ، ونفذه من فورك ، لينجو عنترة وصاحباه ، وتفوزوا أنتم بالنصر المبين : اختر من بينكم ألف فارس ، واجعلهم فى قيادة أمير كبير مجرب ، وأنفذهم من فورك إلى الحيرة ، ليدركوا عنترة قبل وصوله ، وإذا ما لحقوا بفياض وفرسانه المائتين ، يعملون فيهم سيوفهم ، ولا يفلت منهم أحد ، ثم يعودون إلينا من خلفنا فى قيادة عنترة ، فإذا ما وصلوا إلى جيوشنا من الوراء صاحوا وهجموا عليهم بأسلحتهم ، وفى ذلك الوقت تهجمون علينا من الأمام ، وحينئذ سأكون أول من يفر مهزوماً ، وأشيع الهزيمة فى بقية الجند فيجد الهامان نفسه فى طائفة قليلة ، وهو إذ ذاك غير ناج من سيف عنترة أو سيف فارس منكم ، ولكم بعد ذلك الفوز وما غنمتم من الأموال .
وأوصيك أن تجيبنى برسالة مع عبدى حتى أطمئن على وصول كتابى هذا إليك ، كما أوصيك ألا يشعر بعبدى إنسان ، ثم طوى الكتاب وأحضر عبده سالما وقال له : أوصل هذا الكتاب إلى الملك قيس يداً بيد ، ولا تشعر بك أحدا ، وائتنى منه بأمارة تدل على أنه وصله وأريد ذلك فى أسرع من البرق ولك عندى خلعة سنية وألف دينار ؛ يا سالم ؛ السرعة ! السرعة ! فقال سمعا وطاعة ، وأخذه وانفلت كأنه شهاب ثاقب ، حتى

كان فى جدار الجبال التى نزل فيها بنو عبس فوجد الحراس فى أشد يقظة وكان الذى تولى الحراسة هذه الليلة مالك بن قراد ، ومعه مائة فارس ، منهم ابنه عمرو ، وسبيع اليمن ، وميسرة ومازن ، فلما أبصروا العبد قادماً يتدفق فى سواد الليل ، تسابق إليه الرجال الأجواد ، وتقدم إليه مالك وقال : قف وتكلم قبل أن يحل بك الموت ، فوقف العبد وانتظر حتى أحاطوا به ، وقالوا : من أنت ؟ ولماذا قدمت إلينا فى ظلام الليل ؟ فقال : من أنتم من بنى عبس ؟ فإن معى رسالة لا أسلمها إلا لمن أعرفه من السادة الأمجاد . فقال مالك : ومن أنت ؟ فقال : سالم ، عبد الوزير عمر بن نفيلة ، وقد جئتكم بتدبير ينفعكم ، وأريد السرعة ، حتى لايضيع وقته ، فضمه مالك إلى صدره ، وقبله بين عينيه ، وبكى لأنه تذكر عنترة ومجيء سالم إليه فى بعض الشئون . فقال سالم : أريد الملك قيسا ، ولا تشعروا بى أحدا . واحذروا أن يعلم بى الربيع بن زياد أو أحد من إخوته أو شيعته ، فإنه إن علم بى أحد منهم ، هلكت أنا ومولاى الوزير وعنترة وصاحباه ، فقال ورقة ابن زهير ، وكيف تصل إلى أخى قيس دون أن يشعر بك أحد ؟ فقال سالم : الأمر يسير ، وذلك أن يترجل أحدكم ، ويخلع ملابسه وسلاحه ، ثم ألبسها وأركب الجواد وأسير بينكم إليه ، وبعد عودتى إلى هذا المكان أعطيكم ملابسكم وسلاحكم وألبس ثيابى وأعود سريعاً فى الظلام إلى مولاى فإنه ينتظر عودتى على أحر من الجمر ، فعجبوا لذكائه وحسن احتياله ،

وقالوا لو لم يكن معروفاً بهذه الفطنة عند مولاه الوزير ما أرسله . ثم خلع عمرو بن مالك ملابسه وسلاحه ونزل عن جواده . ولبس العبد الملابس وتقلد السلاح وركب الجواد وسار فيهم إلى الملك قيس ، فلما دخل عليه عرفه بنفسه وناوله الكتاب فلما قرأه شكر الوزير وأثنى عليه وأراد أن يعطيه مكافأة أو هدية فلم يقبل ، وقال : ليس هذا وقتها ، وهي لى عندكم إلى وقت آخر ، ويكفيني ما أعده لى مولاى ، ولا شىء أحب إلىّ من سلامتكم وسلامة عنترة وصاحبيه ، وأود أن أعود الآن إلى مولاى ، فكتب إليه الملك كتاباً شكره فيه وحمده ، ثم ناوله إلى العبد وودعه ، وسار العبد إلى مكانه الأول فنزل عن الجواد ونزع الملابس والأسلحة ثم لبس ثيابه وانطلق فى الظلام إلى مولاه فوجده قلقاً ساهراً ، فناوله العبد الكتاب ، وقص عليه ما جرى ، وبلغه فرح الملك قيس وثناءه وشكره .

* * *

أحضر الملك قيس عامر بن الطفيل ، وسبيع اليمن ، ومازنا ، وميسرة ، وملاعب الأسنة ، ثم قال : يا ميسرة : أتحب أن تخلص أباك ؟ فبكى وقال : وأنى لى ذلك ؟ ! وقال عامر : تلك بغيتنا ، ونحن نفديه بأموالنا وأرواحنا ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك ؟ ! فقال قيس : أصبح الأمر فى أيديكم ، وشرح لهم الحال ، وقرأ عليهم الكتاب ، ففرحوا وتسابقوا إلى السير إليه ، فقال قيس : لا يكون إن شاء الله إلا الخير ، فإنهم مائتا

فارس ، لو انطلق أحدكم لقتالهم لأفناهم ، ثم دعا فى الحال برجال عروة وهم مائتان ، وأضاف إليهم أخاه ورقة ، وميسرة ، وعامر بن الطفيل فى ثمانمائة فارس ، فساروا جميعاً فى ستر الظلام ، وشيبوب وابنه الخذروف يدلونهم على أقرب الطرق ، وما زالوا يستحثون جيادهم فى آثار الفرسان الذين على رأسهم فياض ، ومعهم عنترة وصاحباه ، وقال لهم شيبوب : اقتلوا كل من يلقاكم فى طريقكم حتى لايعلم بكم إنسان ، ولا يصل خبركم إلى أعدائكم .

وفى منتصف النهار سمع فياض بن هلال قعقعة من خلفه ، فالتفت إلى الوراء فوجد خيلا تتدفق تدفق السيل ، فنادى فى فرسانه : يابنى عمى ، خذوا أهبتكم ، فإن الخيل من ورائكم ، ولا إخالها إلا خيل أعداء ، فاستعدوا للقتال ، ولم يمض غير قليل حتى أدركهم بنو عبس ، ونزلوا فيهم نزول الوباء ، فقتل ميسرة فياضا ، وحصد الفرسان فرسانه ، فلم يبقوا منهم أحدا ، وأسرع ميسرة إلى أبيه ليفك عنه قيوده ، فوجد شيبوبا قد أسرع إليه وأطلقه ، وأطلق رفيقيه ، وقصوا عليهم قصتهم ، وقالوا إن ذلك من تدبير الوزير عمر بن نفيلة ، وقال : إذا انتهيتم من القضاء على فياض وفرسانه ، فأسرعوا بقيادة عنترة إلى جيشنا من الوراء ، وأعملوا فيه سيوفكم صائحين : يا لعبس ! يا لعدنان ! وسيهجم الملك قيس على جيشنا من الأمام على نحو ما تفعلون ، وسأكون أنا أول من ينهزم ، ويشيع الهزيمة بين

الجند ، حتى يخلو لكم الميدان ، وحينئذ تنقضون على الهامان وتقتلونه شر قتلة ، وتغنمون ما خلفناه من الأموال ، وتهنئون بفوزكم العظيم . فقال عنترة : شكراً للوزير الوفى الأمين ، وأرجو من الله أن يقدرنى على أن أجزيه خير الجزاء ، ثم انطلقوا راجعين والدنيا مشرقة بنور الفرح والأمل أمامهم .

* * *

أما الهامان فإنه ابتدر بنى عبس بالقتال فى الصباح ، وكافح بنو عبس مرير الكفاح ، وما زال بهم حتى ألزمهم الاعتصام بالجبال ، وصاحت نساؤهم خشية السبى والفضيحة ، وكان الليل قد أقبل ، فرجع الهامان إلى مضاربه فرحاً ، وفى نفسه أن يقضى غداً عليهم ، وينهب أموالهم ، ويعود إلى الأسود غانماً ظافراً . ولما طلعت الشمس واصطف الفريقان للقتال ، وهمّ الهامان أن يزحف على بنى عبس ملأ سمعه صيحات فى جيشه من خلفه ووجد الأبطال والفرسان يفرون إليه من شدة الضرب بالسيوف والطعن بالرماح ، فبهت واضطرب ، وسأل عن السبب فلم يجبه أحد . وكان هذا الضرب من عنترة والفرسان الذين معه ، وسمع قيس صياح الفرسان فى جيش الهامان : يا لعبس ! يا لعدنان ! فعلم أن عنترة وفرسانه بين الأعداء ، يحصدونهم بأسلحتهم ، فنادى فى جماعته أن اخرجوا ، واسقوا أعداءكم كئوس الموت فقد جاءكم عنترة ، وهو يجز الأعداء من خلفهم جزاً ،

فانقضوا عليهم كأنهم أسود جائعة ، وجعلت سيوفهم ورماحهم تقطع الرقاب ، وتبقر البطون ، وتمزق الصدور ؛ أما الهامان فقد اضطرب وذهل فجاءه الوزير عمر وأظهر له خوفه ورعبه ، وقال : لقد خطر ببالى أن أمنعك عن إنفاذ عنترة ، خوفاً من هذا الذى حصل ، ولكن مانعا حجزنى لينفذ هذا المقدور ، والحازم من يطلب النجاة لنفسه فى مواطن الخطر ، لأنه لا يناضل فى موضع البحر إلا كل جاهل ، وبينما هما فى حديثهما إذ بغتهما عنترة ، فالتفت إلى الهامان وقال : تبت يداك يا ألأم العرب ! أظننت أنك أسرتنى ؟ ! ثم طعنه بالرمح فى صدره فأرداه قتيلا ، وفر الوزير من أمامه فزعاً — بعد أن نظر إليه عنترة نظرة كلها شكر وثناء وإجلال — وطلب النجاة هارباً فى فسيح البيداء ، فتبعه الجيش هارباً مهزوماً ، وعنترة يضرب فيهم من خلفهم حتى أبعدهم مسافة أربعة فراسخ ، ثم رجع هو ومن معه ، وأخذوا يجمعون الغنائم ، ورجعوا إلى منازلهم فى الجبال سالمين منصورين ، وأسرع الخذروف إلى عبلة فبشرها بخلاص عنترة ، ففرحت ومنحته خلعة غالية ، وخرجت إلى النساء فبشرتهن وأقمن الأفراح ، واطمأن القوم فى منازلهم ينعمون بفوزهم ، وبما لذ وطاب من طعام وشراب .

٨

وكان الملك الأسود يمنى نفسه بالنصر العاجل ، على يد الهامان وجماعته ، وذات يوم سمع ضجيجاً ، وصياحاً بالويل والثبور ففزع ، ودخل عليه وزيره إذ ذاك فى حال بئيسة ذليلة ، فارتاع لوزيره وهلع ، وسأله عن الهامان وجيشه ، وحاله التى هو فيها ، فقال الوزير وهو يرتعد فزعاً ورعباً ؛ قتل عنترة الهامان ، وأفنى جماعته ، وقص عليه ما جرى قصة واضحة شاملة ، جعلته من فهمه إياها كأنه كان معهم . فحار فى أمره ، وضاق صدره ، وأيأسه غمه وهمه ، وقال : لا بد إذن من رحيلى إلى كسرى لأقص عليه قصتى ، ليمدنى بجيش من عنده ، وحينئذ نقضى على عنترة ، ولا يهمنى بعد ذلك أن تنحط منزلتى عنده ، ما دمت قد شفيت صدرى بقتل هذا المخلوق العجيب ؛ ثم أخذ أهبته للرحيل من ساعته ، وسار فى خواص دولته ، فدخل عليه وسلم وحيا ، وأجلسه كسرى على عرش من ذهب ، حسب عادته مع ملوك العرب ، وسأله كسرى : فيم أتيت «يا شاه تازيان » ؟ فقال : تمرد علىّ خمس قبائل ، فعصونى وأذلونى ، وما أغراهم بذلك إلا بنو عبس وعبدهم اللئيم عنترة بن شداد ، ثم قص عليه جميع ما وقع له فقال كسرى ستعود الأيام الماضية مع عنترة وبنى عبس

وعدنان وقبرجدى « سابور » لأذهبن إليهم ولأفنينهم ، ولا أترك منهم أحدا ثم دعا إليه « مرزبان» ، اسمه « شهربان بن مهران » وقال له : لقد استكبر علينا عبد من العرب ، يدعى عنترة بن شداد ، وهو أشجع من رأيت وسمعت ، قتل للملك الأسود كثيراً من الفرسان ، وأريد أن تذهب إليه وتقتله ، أو تأتينى به أسيرا ، وخذ معك أربعين ألف فارس ، ومعك « شاه تازيان » العرب وجنوده ، وأنت صاحب الأمر والنهى فيهم ، ففرح وقال : سمعاً وطاعة ، وإنى لذاهب إليه فى هذه الساعة .

ولما جهز الجيش سار به ومعه الملك الأسود حتى وصلوا إلى الحيرة ، فأضافهم ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع رحل الأسود فى مائة ألف من بنى لخم وسليم وشيبان ، ورحل « المرزبان » فى أربعين ألفا ، أما الوزير عمر بن نفيلة فإنه كتب إلى عنترة كتاباً وأرسل به إليه يحذره بقدوم هذا الجيش فلما قرأ عروة الكتاب عليه شكر الوزير ، وذهب إلى الملك قيس فوجده جالساً فى سادات العرب فسلم وحيا وجلس ثم قال : جئتكم بالبشرى ، فقالوا : بشرك الله بكل خير ، وما هى ؟ فقال : غنيمة ذات قدر وقيمة وذكر لهم ما فعله الأسود وكسرى ، وأن جيوشهم خرجوا من الحيرة منذ أيام خمسة ، وهى قادمة إليكم ، وقال لهم : ماذا تفعلون : فدهشوا واضطربوا من كثرة الجيوش كثرة لم يسمعوا بها من قبل ، وقال الملك قيس : الرأى فى ذلك رأيك يا عنترة ، وليس فينا من يخالفك أو يعصى أمرك . فقال عنترة

أرى أن نرحل من هذا المكان ، ونأخذ الحريم والأموال ، ونلقاهم على بعد من الحيرة ، فذلك أيسر لنا فى التغلب عليهم ، فقالوا : ما رأيته فيه كل خير وسلامة ، ثم نهضوا ونادوا فى قومهم بالرحيل ، وبعد أن تجهزوا وهموا بالرحيل قال عنترة : سأسبقكم أنا وعروة فى مائة فارس ، خشية أن يكون فى طريقكم كمين . فقال الملك قيس : افعل ما تشاء ، فإنا لا نخالف لك رأياً . وسبقهم عنترة وهم من خلفه سائرون .

أما الملك الأسود فإنه استمر سائراً بالجيوش حتى كان فى واد فسيح كثير الخيرات ، فنزل فيه بجيوشه للراحة ، ورأى عنترة ومن معه هذه الجيوش التى نزل بها الملك الأسود فى ذلك الوادى ، وقد ملأت رقعته ، فقال : نختبئ هنا فى مكان حصين ، وننتظر هذه الجيوش إلى أن ترحل وتسير إلى قتال أقوامنا ، ثم نهجم عليهم من خلفهم ، ونوقع الارتباك والضعف فى صفوفهم ، وبعد أن اختبأ هو ومن معه رأوا سرية عدتها مائة وخمسون فارساً ، أرسلهم الأسود فى أسلحتهم ، ليأتوه بأخبار عنترة وقومه ، فانتظر حتى ساروا نحو جبلى خشاخش والتناصب ، ثم تبعهم مقتفياً آثارهم ، فلما رأى مقدمهم قتادة بن سوار بنى عبس ومن معهم قد ملئوا الأرض ، خاف على نفسه وعلى فرسانه ، فرجع بهم ، ولكن عنترة ومن معه استقبلوهم بأسلحتهم ، ونادى عنترة فيهم : أن سلموا أنفسكم قبل أن أذبحكم جميعكم ، فأنا عنترة بن شداد ، ولم يمض غير ساعة حتى ربطهم

على خيولهم وساقهم إلى قومه من بنى عبس ومن معهم ، فلما حضر بهم عند قومه ، دهشوا لفعله ، ثم أحضرهم أمامه وقتل منهم مائة وأربعين ، أما الفرسان العشرة فإنه قطع آذانهم وأنوفهم وعلقها فى رقابهم ، وأركبهم خيلهم عراة الأجسام وقال لهم : ارجعوا إلى الأسود ملككم وقصوا عليه ما فعلته بكم ، وكان قد سألهم : فيم أتيتم ؟ فقالوا : أرسلنا الأسود إليكم لنعرف هل علمتم بقدومنا إليكم أو لم تعلموا ، فقال لهم بلغوه أننا نعلم بمسيركم إلينا قبل أن تنزحوا من الحيرة . فرجعوا مسرعين باكين إلى الأسود وأفضوا إليه بما جرى ووقع ، فغضب الأسود وحزن ونادى فى جيشه فى الرحيل ! الرحيل ! القتال ! القتال ! وسار إلى بنى عبس .

أما عنترة فإنه نظم جيشه ، فجعل فى الميمنة بنى عامر وعلى رأسهم ملاعب الأسنة وعامر بن الطفيل ، وفى الميسرة بنى حمير وعلى رأسهم ذو الحمار ووهب بن موهوب ، وفى القلب الملك قيس بن زهير ، والأخوص ابن جعفر على بنى عبس . وما فرغ من عمله هذا حتى نزل الأسود و « المرزبان » بجنودهما ، وتقدم جهالهم يبغون الحرب والقتال . فرأوا عنترة فى مائة فارس من قومه ، فطمعوا فيهم لقلتهم ، ولكن عنترة ابتدرهم وتخطفهم برمحه واحداً بعد واحد ، وأصحابه يفعلون بهم مثله ، وما جاءت ضحوة النهار حتى قتلوا منهم ألفى فارس ، وأدبر باقيهم مهزوماً ، وكانت عدتهم ستة آلاف ، فأقبلت الجيوش جميعها ، وفيهم جيوش العجم والديلم

وخراسان ، فانقض عليهم رجال عنترة من كل جانب ، وأعملوا فيهم سيوفهم ورماحهم ولم تكن إلا ساعة حتى بلغ عدد القتلى منهم ألفاً وخمسمائة ، فغضب المرزبان وقال لمن معه : لم قاتلتموهم ؟ أما كان الأجدر بكم أن تعتمدوا علىّ ، وكنت أنا أكفيكم شرهم ، وأريحكم من قتالهم ، وكان هذا القول حين أقبل الليل ، وانفصل الفريقان . وفى منتصف الليل أحضر المرزبان خواص جيشه ، وشاورهم فى أمره فأجمع رأيهم على أن يكتب المرزبان إلى عنترة ويقول : اعلم يا عنترة أنى نائب كسرى ، وأمرك فى يدى ، فسلم نفسك قبل أن يحل عليك غضبى ، وأستل روحك بسيفى فإن أبيت فقد ظلمت نفسك ، وألقيت بها إلى مهانة الأسر أو التهلكة ، وغضب النار عليك ، تلفح وجهك ، وتشوى جلدك ، ثم أعطى حاجبا من حجابه الكتاب ، وأمره أن يوصله لعنترة ، ويرجع إليه بجواب منه ، فلما كان الحاجب بين يديه ناوله الكتاب ، فأخذه عنترة ، وقال : خذ الكتاب يا عروة واقرأه ، ولما انتهى من قراءته ، قال عنترة : ثكلتك أمك ، والله لأنزلن بهذه الجيوش صاعقة من العذاب ، تقتل من تقتل ، وتفزع من تفزع ، حتى لا يهتدى أحد منهم إلى سبيل . يا أبا الأبيض ؛ اقطع أذنيه وأنفه ، وعلقها فى عنقه ، واتركه يرجع إلى صاحبه ! ففعل عروة ما أمره به ، فرجع يبكى وهو على هذه الحال ، فلما رآه أصحابه والمرزبان دهشوا واضطربوا ، ثم أمر المرزبان أصحابه أن يستعدوا للقتال ولما طلع

النهار برز هو إلى الميدان ، وطلب أن يبارز الفرسان . فبرز إليه عنترة ، وجعل يصاوله ويجالده ، حتى بهره وأقلقه ، فوقف المرزبان فى ركابه ، وهز حربة من حرابه ، وأرسلها قوية إلى صدر عنترة ، ولكن عنترة أخرج رجله من ركابه ، وانقلب فى سرعة خاطفة ، فكان لبباً لجواده ، وانطلقت الحربة إلى الأرض فاشلة ، فأتبعها بحربة ثانية ، فانقلب عنترة وكان حزاماً لجواده ، ثم أطبق عنترة عليه كأنه رسول المنية ، وطعنه فى جنبه الأيسر ، فخرج السنان من جنبه الأيمن ، ووقع على الأرض يتشحط فى دمه ؛ فلما رأى أصحابه أن قائدهم المرزبان قد قتل ، حملوا على عنترة ، واستقبلهم هو وأصحابه كأنهم نار حامية ، وسقوهم شراب المنون ، ولما رأى طوائف العرب ما حل بالمرزبان وجنوده هموا أن يخوضوا المعركة ، فمنعهم الوزير عمر بن نفيلة ، لأنه يحب عنترة ، ويتمنى أن ينتصر ، وقال للملك الأسود : أما سمعت المرزبان يؤنب العرب ويقول : إنى لا أريد منكم قتالا ولا معونة ، وما رأيت أقبح ولا أخزى من أن يحمل طوائف العرب على مائتى فارس ، فقال الأسود : وما الرأى حينئذ أيها الوزير ؟ أما علمت أن ذا الحمار يعد بسبعة آلاف ، وأن عنترة يعد بالعرب أجمعين ؟ ! إنى لن أترك عنترة وصحبه يبيدون الرجال ، وقامت الحرب على ساقها حتى أقبل ظلام الليل ، وانفصل الفريقان ، وأووا إلى مضاربهم وخيامهم . واجتمع أكابر العرب عند الملك الأسود وقالوا : إن كسرى الذى كنا نعول عليه قد هزمت جنوده ، ومات

المرزبان قائده ، وقد أصبحنا فى حالة تدعو إلى الاهتمام ، فبات الأسود وهو يفور من الغيظ فوران القدر .

ولما جاء الصباح برز عنترة إلى الميدان ، وصاح فى الملك الأسود وقال تجمع العشائر والجنود من أجل عنترة بن شداد وحده ، وسول لك وهمك أنك غالبه ، ويل لك من عنترة ! كيف تجير قاتل ولدى ؟ ! ورب الكعبة ، إن لم تسلمنى حصن بن حذيفة ، وتخرج من حق المتجردة ، لأسحقنكم جميعاً سحقاً شديداً ، ولأجعلنكم حديث البادى والحاضر ، والمسافر والمقيم ، أبرز إلىّ فى هذا الميدان ، أيها الجاهل الأحمق الجبان ، وكفاك أنك خيبت أمل قبائل كنت فى زعمك حمى لها وملاذاً . فلما رأى الأسود أنه يجول فى الميدان ، ولم يجرؤ أحد أن يخرج إليه صاح من الغيظ قائلا : احملوا عليه بجموعكم وائتونى برأسه . فحمل حصن بن حذيفة فى بنى فزارة وعاطل فى بنى سليم ، ومفرج بن هلال فى بنى شيبان ، فقال ذو الخمار : بحق ما بينى وبينك من المحبة والصداقة لتتركنهم لى ومعى مائة من فرسان قومى ، فقال : عنترة : أيرضيك أن أتركهم وقد رأيت حصن بن حذيفة فيهم ؟ ! فقال ذو الخمار : فلأكن معك فى مائة فارس ، وإذا حملت بقية العشائر ، حملت جنودنا جميعهم ومزقت منهم المرائر . فقال عنترة : افعل ما بدالك . ثم قال للملك قيس : لا تتحرك من مكانك أنت وبقية الجنود حتى ترى الأسود حمل علينا بعشائره وجنده . ثم حمل عنترة وذو الخمار فى



المرزبان واقف فى ركابه يقذف عنترة بالرمح وعنترة يزوغ تحت لبب جواده

مائة فارس على الأعداء ، فاختلط الجمعان ، واشتد فى الأعداء الضرب والطعن ، وكثر فيهم الموت والعطب ، وكان حصن بن حذيفة حريصاً على نفسه أن يلقاه عنترة وإن كان قدجرحه على بعد منه جرحاً بليغاً. فلما انتصف النهار ولى هارباً ، وبنو فزارة فى أثره ، وكذلك انسل بنو سليم وشيبان من الميدان جزعين هاربين ؛ وجاء الظلام فرجع عنترة وصحبه إلى خيامهم فائزين ، أما الملك الأسود فما كاد يرى فلول الجيوش المهزومة ، حتى نكس رأسه ، وغرق فى لجة من غمه وحزنه ، وقال : هل فى الدنيا من هو أبأس منى ؟ ! لقد ضيع عنترة منزلتى بين العرب والعجم ، فقال وجوه دولته : أنت سبب بؤساك ، فإنك لم تحمل عليه بهذه العشائر مجتمعة ، وتركتهم لسيفه ، يصيدهم عشيرة بعد عشيرة ، فقال : وهل بلغ بى الخرق فى الرأى إلى أن أغامر بكل ما أملك من قوة دفعة واحدة . وأنتم — يا أبطال العرب وفرسانها — قد لقيتم عنترة فى عشرين ألفا فمزقكم ؟ ! ومع هذا فإنى أستطيع أن أجاريكم فى رأيكم ، وأعلن الآن فيكم أن تحملوا على عنترة غدا بجميع هذه العشائر . ولكن انتظروا حتى أبعث إليه كتاباً منى ، ثم ننظر فيما يجيبنى به . وهنا خلا الوزير عمر بن نفيله بنفسه وكتب إلى عنترة بإجماع الرأى على أن يغيروا عليه بجميع العشائر والجنود غداً ، وأنفذ به عبده سالماً فى الحال ، فوصل إليه وأعطاه الكتاب وقرأه عليه عروة ، وكتب إليه يقول : لا زلت مديناً لك بالفضل والمعروف ، ولا زلت أشكر لك حسن

صنيعك ، وجميل عطفك ، ما دمت حيًّا ، وسوف ترى ما يسرك ، وتقر به عينك ، وأعطى العبد الكتاب ، وانفلت به إليه ، فأخذه وقرأه واستراح .

وأحضر الملك الأسود وزيره عمر بن نفيلة وقال له : أريد أن تكون رسول سلام بينى وبين عنترة ، وترضيه على أى وجه تريده ، وتعرض عليه أن أمنحه الأمان ويسلم نفسه ، وأصلح بينه وبين كسرى وحصن بن حذيفة ، فقال الوزير : سمعاً وطاعة ، ولكنى أود أن تزودنى بما تقدر عليه من مظاهر الغنى والقوة ، لتكون لى عنده هيبة وعزة ، ويكون لحديثى معه قيمة ، فقال الأسود : نعم ما فكرت وذكرت ، فأمر أن يأخذ معه كثيراً من النجائب ، واثنى عشر قضيبا من الذهب ، ومثلها من الفضة ، والأبواق والأعلام ، وصحبه خمسون من أكابر العرب ، وسار فى موكب يشرح الصدر ويسر القلب ، حتى لقى فريقاً من بنى عبس ، ونقلوا إلى عنترة نبأ قدوم الوزير عمر بن نفيلة ، فأسرع إلى استقباله مرحباً ، وأجلسه فى احترام وإجلال ، فى جمع من كبار الفرسان ، ليستمعوا لما جاء به من عند ملكه الأسود ، فقال الوزير فى نغمة تنم عن كراهيته لعنترة ، وبغضه لما فعله ، حتى لا يشعر أحد أنه على صلة به ، — قال — : اعلم — يا أبا الفوارس — أن سيف الملك طويل وقاطع ، وإن لم يصبك اليوم فلن تنجو منه غداً ، وأرى أن تمضى إليه ، وتعتذر لديه ، نادماً على ما

فعلت ، حتّى يكف عنك شره ، ويصلح ما بينك وبينه ، ولو أراد أن يملأ الأرض فرساناً لملأها، وطواك ومن معاك فى ثياب الفناء ، ولكنه آثر المسالمة، ليوثق بينك وبينه رابطة الصداقة والمحبة والوفاء؛ فانظر يا عنترة ماذا ترى ! ! ثم أشار إليه بطرفه إشارة خفية ، قال له فيها : انهب جميع ما أحضرناه من عند صاحبنا ، ولا تلن جانبك لنا . فقال عنترة : قبل أن تسمعوا منى كلمة ، انزعوا ما عليكم من ثياب وزينة، فأنا أولى بها منكم . وجردهم من ثيابهم وزينتهم وما معهم ثم قال : اسمعوا وعوا ، وبلغوا صاحبكم ما تسمعون : سأقاتلكم أجمعين ، ولن أسكت عن الأسود حتّى آخذ بثأر ابنى ، وسأطرده من الحيرة أو أقتله وأجلس على عرشه . ولولا أنك رسوله ولك عندى أياد سابقة — أيام الملك المنذر وابنه النعمان — لسقيتكم الآن كئوس المذلة والهوان ، فارجعوا مذمومين غير مشكورين ، ثم أسر الوزير فى أذنه وهو يشيعهم فى ذلة شملتهم، وقال : فى الوقت الذى نجتمع فيه بالأسود من هذه الليلة ، لنقص عليه ما فعلته بنا ، اهجم علينا بجميع من عندك من الفرسان فى غسق الليل ، فإذا سمعتُ الصياح فسأكون أول هارب، ثم أعلن صوته وقال: يا عنترة استمع لنصيحتى ، وارجع عن عنادك واستكبارك . فقال عنترة: لا تكن لجوجاً ملحافاً، ولا تطل الكلام، وإن لم تسكت فليس لكم عندى إلا ضرب الحسام . ثم طردهم مشاة حفاة عراة ، ومضوا إلى الملك الأسود على هذه الحال الشنيعة .

ولما رجع الوزير كان حاضراً بمجلس الملك الأسود بنو شيبان وفزارة ولخم وجذام ، ينتظرون عودة الوزير بما أجاب به عنترة ، فما كاد المجلس يراهم على هذه الحال البئيسة حتّى دهش وقلق ، وفزع الأسود وسأل وزيره عما جرى، فقص عليه كل ما كان، وأطال فى وصف ما لاقوه من عنترة . وبينما هم ينصتون إلى حديث الوزير إذا هم يسمعون قعقعة أسلحة ، وجلبة معركة حامية ، وصياحاً من بنى عبس ، يتحاضون على الفتك بأعدائهم ، فقال الأسود : ما هذه المصائب التى تتساقط علينا كسفا ؟ ! اهربوا يا قوم ! وانجوا بأنفسكم ! فلا عتب عليكم . فكان أول هارب حصن بن حذيفة ، وركب الأسود جواده وطار به هارباً ، وتبعه جميع من معه ، وتبعهم بنو عبس بالضرب والطعن حتّى أبعدوهم ، وقتلوا كثيراً منهم ، وغنموا ما تركوا من أموال وخيل ، وقال عنترة : هيا بنا إلى الحيرة فقالوا : ذلك خير لنا وأحسن عاقبة ، ثم أخذوا العيال والأموال ، ودخلوا الحيرة وجلس قيس على عرشها، واستقر بهم المقام فيها، ونادى عنترة : الأمان الأمان لأهل الحيرة وما يملكون ! ! وأمر الملك قيس أن تذبح الذبائح ، وتقام الولائم ، ويطعم الطعام ، ففعلوا ؛ وكان لهذا العمل جميل وقعه فى نفوس أهل الحيرة ، أما الملك الأسود فإنه فر من الميدان إلى كسرى بالمدائن، وتبعه من كانوا معه، ودخل الأسود على كسرى ، وقد كمل مجلسه بجلسائه من كبار دولته ووزرائه ، فقال : هلك الفرسان والرجال ،

وضاعت البلاد والأموال ، فقال : ومن فعل بكم هذا ؟ فقال : عنترة وقيس بن زهير وبنو عبس وعامر وغنى وكلاب وحمير ، وتحت يد عنترة الآن أكثر من عشرين ألف فارس ، وقد ملك الحيرة ، وأجلس قيسا على عرشها ، فقال كسرى : وأين المرزبان ، وفرسانه الأربعون ألفا ؟ فقال : قتله عنترة ، واجتمع عليه بعد قتله مائة ألف منا فهد بنيانهم ، ومزق جمعهم ، وردهم على أعقابهم خاسئين . ثم قص عليه جميع ما جرى لهم من عنترة . فقال : بلغنى أنك صاهرت بنى عبس ، وتزوجت من المتجردة ، وأصبحت من أحبائهم ، فماذا جرى حتى تبدلت هذه الحال ؟ وما سبب تلك الحروب الدامية ؟ قل ما عندك من الحق ، ولا تخف شيئاً عنى ، فلم يجد الأسود مفرًّا من بيان الواقع ، فقال : ما أشعل نار الحرب بينى وبين بنى عبس وعنترة ، إلا حصن بن حذيفة ، لأنه قتل ابن عنترة ، وهرب إلىّ منه ، هو وبنو فزارة ، واستجار بى فأجرته ، لأنى زوج أخته ، ووجب علىّ حمايته ونصره ، وما كفى عنترة أن أسر منهم ألفا وثلاثمائة ، ذبحهم على قبر ابنه ، وأرسل إلىّ يقول : لن يردنى عنك إلا قتل حصن ابن حذيفة ، فلم يرضنى هذا القول ، وقامت هذه الفتنة بينى وبينه ، فقال كسرى : أرى أنكم الظالمون المعتدون ، ولا لوم على عنترة ، ولماذا تقتلون ابنه ؟ وكان قد دخل مع الأسود حصن بن حذيفة ، فتقدم إلى كسرى فى ذلة ومسكنة ، وقال : وحياتك أيها الملك العظيم ما قتلته عمداً ،

وما كنت إلا فى غيبوبة عميقة من السكر ، وما كنت أدرى ما أفعله من خير أو شر ، ولقد ذبح عنترة فيه وقتل مئات من بنى فزارة ، وقد رضيت بما فعله فينا من قتل وتعذيب وتشريد ، ونحن جميعنا بين يديك أيها الملك العظيم ، فإن قتلتنا فأنت بقتلنا أجدر وأولى ، لأننا فى طاعتك ، ولا نخرج عن إرادتك . فرق كسرى لحاله وقال : إذا كان عنترة لم يقنع بما فعله ، فإنى أكبته وأقهره ، وألعن أباه وجده ، ثم أطرق قليلا ، ورفع رأسه إلى وزيره وقال : وماذا ترى ؟ قال الموبذان : إن عنترة رضىّ النفس ، كريم الخلق ، وأنا كفيل بإصلاح ما بينك وبينه ، وبإحضاره إليك طائعاً مختارا من غير حرب ولا قتال ، وقد خبرناه فعرفناه لا تقهره الجيوش مهما بلغ عددها ، ولكنه يسلس قياده بالكلمة الطيبة اللينة . فلما سمع كسرى كلام الوزير ضحك ساخراً وقال : كيف يأتى عنترة إلينا ، ويأمن جانبنا ، وقد قتل بالأمس المرزبان قائدنا ، وفتك بجيوشنا ؟ ! فقال الوزير : ما أبديت رأياً لا أستطيع تنفيذه ، فعلىّ إحضاره بين يديك طائعاً مختاراً ، فتهلل وجه كسرى فرحاً وقال : إذا كان الأمر ميسورا لك فافعل ما شئت . فجهز الوزير خمسة آلاف فارس فى زينتهم الباهرة ، وهدية عظيمة ما خطرت ببال أحد ، منها مائة جواد بيض ، محملة بالذهب والفضة والحلى والحلل ، وأربعة أبواق من الذهب ، وسار كل أولئك إلى عنترة ، فاشتد خوف حصن بن حذيفة ، وقال لعمه سنان بن أبى حارثة : أخشى أن يسلمنى

كسرى إلى عنترة ، فقد أصبح فى حاجة إلى معونته ، فقال سنان : ذلك ما لا يكون ، وإن كان الأمر كما تقول فلا حيلة لنا فى دفعه ، ولاراد لما كتب علينا وقدر .

ولما أشرف الموبذان على الحيرة ، وبلغ عنترة قدومه، خرج فى أبطاله واستقباله ، واحتضنه الموبذان وقبله بين عينيه ، فرجع بهم إلى الحيرة ، ولما اطمأنت بهم مجالسهم ، قال الموبذان : إن الملك كسرى أرسلنى بهذه الهدية إليك ، وأمر فى الحال رجاله أن يحضروها بين يدى عنترة ، فجاءوا بها إليه ، ووجدها هو وأصحابه والملك قيس فوق ما يتصوره إنسان ، ثم قال الموبذان : وإن كسرى يقول لك : ما كان ظنه فيك أن تقتل رجاله ، وتخرب دياره ، فقال عنترة : ما جر عليه ذلك إلا الملك الأسود ، فقد أجار قاتل ابنى ، وقتل المتجردة وجرد الجيوش والقبائل لقتالى ، واستنجد بكسرى وجنوده فنصرنى الله عليه ، وما أنا بقاعد عن أعدائى ، فإنى لا أبالى بإنس ولا جان ، فقال الموبذان : العفو بك أكرم وأجمل ، وكثيراً ما نعم الناس بصفحك ، وتفيئوا فى ظلال كرمك؛ واعلم يا حامية بنى عبس أنى ما جئتك عاتباً ولا لائماً ، ولكنى جئتك فى أمر أقلق كسرى ، وأقض مضجعه ، ولا منجاة له منه إلا على يدك ، ويرجو منك أن تعينه وتنصره ، وذلك أن شروين بن جروين خرج عليه وشق عصا الطاعة ، وأخذ منه بلاد العجم وخوارزم وأصفهان ، وأطاعه فيها كثير من الجند والفرسان ،

وحاول إخضاعه، فمزق شروين جنده ، وطمع فى ملكه ، فقال كسرى : ليس لنا فى الدنيا من نستعين به إلا عنترة ، فهو سيفنا وملاذنا ، وله فضل على الدولة الكسروية من أيام أبى ، وأوفدنى إليك بهذه الهدية ، وأمله فى تلبية رجائه عظيم . فقال عنترة : ما خيبت لأحد أمله فينا ؛ ثم وزع الهدية على الملك قيس وأصحابه من الملوك والأبطال ، وأعطى منها الربيع بن زياد الذى تصدع قلبه ، وانفطرت مرارته ، من عنترة الذى اطرد سعده ، وعلو كعبه ، حتى استنجد به كسرى .

* * *

استعد عنترة للرحيل ، وترك الحريم والعيال فى الحيرة ، ووكل أمرهن إلى ورقة بن زهير وعلقمة بن علاثة ، وألف فارس ، منهم خمسمائة من بنى عبس ، وخمسمائة من بنى عامر وغنىّ وكلاب ؛ ثم مضى فى جنده وسادات العرب وملوكهم حتى وصلوا إلى مدائن كسرى ، ولما جاءته البشرى بقدوم عنترة ، أمر العشائر بالخروج لاستقباله ، فخرج كل من فى المدينة من رجال ونساء ، وكبير وصغير ، ترفرف عليهم الأعلام والرايات ، وتطرب الأسماع أنغام المزامير ، ودقات الطبول ، وكان كسرى جالساً على عرشه، وعلى رأسه تاجه الذهبى المرصع بالجواهر ، ومعه أكابر دولته ، وأبطاله فى أسلحتهم ، ودخل عنترة المدائن فى ذلك اليوم المشهود ، ولما قرب من ديوان كسرى ، همّ عنترة أن يترجل بحسب العرف المتبع ، فمنعه الوزراء والحجاب

وقالوا : إن الملك أمر أن تدخل من سائر الأبواب وأنت راكب جوادك ، فدخل عنترة ومن ورائه المشاة من أهله وأعوانه ، فلما انتهى من الدهاليز نزل عن جواده ودخل على كسرى فى مجلسه ، فقام إليه هو ومن معه ورحب به ، وأجلسه على أريكة من العود القمارى ، المرصع بالدر والجوهر وعليها حشية من الحرير المزركش ، وهى محشوة بريش النعام ، وجلس ملوك العرب فى أماكنهم اللائقة بهم ، وأحضر لهم الطعام والشراب ، فهنئوا بما أكلوا وشربوا ، ثم قال كسرى لعنترة : أيها البطل العظيم ، إن الملك الأسود نائبى على الحيرة قد أخطأ وحاد عن الصواب . وأما حصن بن حذيفة فقد بلغنى أنك ذبحت من بنى فزارة ألفا وثلاثمائة على قبر ابنك ، وإن لم تكن قد قنعت بذلك فإنى أسلم بنى فزارة إليك لترمى رقابهم بين يديك ؛ فارتعدت فرائص حصن بن حذيفة ، ولكن كسرى استمر فى قوله فقال : وإذا تفضلت علىّ فهب لى دمه ، واعف عنه وعن الأسود ، فإنهما على أية حال من أبناء عمك ، ولحمهما من لحمك ، فوقف عنترة وقال : إن الملك الأسود لا أطلب منه شيئاً لنفسى ، ولكن ابن عمى قيس بن زهير يطلب رأسه فى أخته المتجردة ، فالتفت كسرى إلى قيس وقال : إن الأسود غلامى ونائب عنى فى بلادى ، وقد قتلتم رجاله وعشائره ، وطردتموه من الحيرة وملكتموها من بعده ، فكفاكم هذا ، وأرجو أن تهبه لى ، فوقف قيس وقال : أما ذنبه فى قتل المتجردة فقد عفوت عنه من أجلك ، ولكنه اعتدى

على عنترة ، إذ أجار قاتل ابنه ، حصن بن حذيفة ، وجرد الجيوش لقتاله . وكان عليه أن يسلك طريق الحق والعدالة ، ويأخذ للمظلوم حقه من ظالمه ، ولكنه استكبر وبغى وجرد الجيوش لقتالنا ، ولما هزمنا رجاله وشعر بضعفه أمامنا ، عمد إلى المتجردة وهى امرأة ضعيفة فقتلها ! فقال كسرى : لقد ارتكب الأسود ذنباً عظيما ، واستحق ما ناله منكم من العذاب والنكال ، ولو أردت أن أسلمه إليك لترمى رأسه لفعلت ، ولكننى أرجو أن تهبه لى وتعفو عنه ، فقال قيس : لقد عفوت عنه من أجلك ؛ وقال عنترة : وقد عفوت عن حصن من أجلك أيضاً ، وهكذا قضى كسرى على ما بينهم من المشاقة ، وأصلح ذات بينهم ، وأقيمت الأفراح وأصبحوا إخواناً متحابين متعاونين . وبعد ثلاثة أيام قضوها فى ضيافة الملك كسرى الكريمة السابغة رحل عنترة إلى دياره .

٩

أقام عنترة فى دياره ما شاء الله أن يقيم ، ثم هزه الشوق إلى زيارة دمشق وملكها الحارث الوهاب ، فأحضر إليه عمه زخمة الجواد ، وأخاه مالك بن قراد وابنه عمرا ، وسلم إليهم أموال عبلة وأمواله ، من نوق وجمال وذهب وفضة وغيرها ، ووصاهم أن تكون أمواله ملكاً لابنه ميسرة ، يأخذ منها ما يشاء

متى أراد وإن أنفقها جميعها ، ووصى بنى عبس بميسرة وزيد بن عروة بن الورد ، وقال لميسرة : لا تذل لأحد ، وأعمل سيفك فيمن تشاء ، قريباً كان أو بعيداً ، ولا تقم على ضيم بين بنى عبس ، فإن شعرت بضيق منهم فارحل إلى دمشق ، وائتنى فيها ؛ ومنح غلمانه أموالا كثيرة ، وأعتقهم ، ووصاهم أن يكونوا فى طاعة ابنه ميسرة ، ، وإن رحل رحلوا معه ، وألح عليه فرسانه وعبيده أن يأخذهم معه ، فقال : لولا أنى أخشى أن يقول الملك قيس : إن عنترة أخذ معه الفرسان ليحرسوه فى طريقه لأخذتكم معى .

وقال لعبلة : سأترك الديار للملك قيس والربيع بن زياد وإخوته ، ليكون الملك تحت أمرهم ، يدير شئونه بحسب رأيهم وهواهم ، وإنى مع رحيلى هذا عبد للملك زهير وأولاده ، وإن بقيت منهم بنت عمياء كسيحة فإنى عبدها ومرغم الناس على طاعتها ؛ وبلغ الملك قيسا رحيله وما قاله فيه ، فبكى وهم أن يأتيه يمنعه من الرحيل ؛ فقال له الربيع : دعه يرحل ، فإن العداوة التى بيننا وبين الناس ما كانت إلا بسببه ، ولولاه ما طرق ديارنا عدو ولا صاحب ثأر ، وما زال به حتى أقعده ، وحال بينه وبين ذهابه إلى عنترة .

أخذ عنترة معه شيبوبا أخاه ، وابنه الخذروف ، وسبيع اليمن ، وأمه مسيكة ، وأباها وإخوتها ، وعبلة ، وأمه زبيبة ، وخميسة أمة عبلة ، وبعضاً من العبيد والجوارى لخدمته ، وأخذ معه ما يحتاج إليه من الجمال ، وحمل بعضها ما عز عليه من أمواله ، وكان معه من الخيل الأبجر والأصفر

والأشقر ، وفرس زياد أكال الأكباد ، ونعامة وكوكب وأمه سكاب ؛ وسبع قباب من الأديم ، وسبع من الإبريسم ، وسرادق كبير كان للملك كسرى ، ثم سار يقطع البرارى والقفار . ومروا بالرحبة ثم السبخة ، ثم حصن قيصر ، وأقاموا بكل منها ثلاثة أيام ، ثم وصلوا إلى مكان يقال له القيمول وهو غنى بالعشب والكلأ والماء والمرعى ، فأقاموا حتى إذا أشرفوا على دمشق قال لأخيه شيبوب : اسبقنى إلى دمشق ، وبلغ الحارث نبأ قدومى ، فأخذ شيبوب ابنه الخذروف . وبعد أيام كان مشرفاً عليها ، فاخترق ما حولها من بساتين ذات أشجار وأزهار ، تغرد من فوقها الأطيار ، حتى دخل دمشق الشام ، فوجدوا مآتم تتجاوب فيها أصوات البكاء ، ووجدوا الدكاكين مغلقة ، وأهل المدينة فى حرقة من الأحزان لاذعة ؛ ورأوا الجوارى منشورات الذوائب مشقوقات الجيوب ، يلطمن الخدود ، ويصحن بالويل والثبور ، فسأل شيبوب بعض الناس عن هذه الحال الباكية الجازعة ، فقيل له : قتل الحارث الوهاب ، سيد بنى غسان ، فعاد شيبوب فى الحال إلى أخيه ، وترك ابنه الخذروف يكشف الخبر ، ويعرف : كيف قتل الحارث ... ! !

عمر الحارث الغوطة واتخذها مكاناً لنزهته وراحته ، ثم رحل إلى دمشق وأقام فيها ، وكان قد عظمت هيبته ، وخافه ملوك الشام ، ومنحوه الجزية كل عام ، وذات مرة أرسل ابن عم له إلى بنى تنوخ ، ليحضر الجزية التى عليهم ، فأكرموه وأضافوه أياماً . ثم رجع إلى دمشق ومعه الجزية ، وكانت

شيئاً كثيراً من الثياب والمال والطيب والذهب والفضة ، ولم يكن معه من الرجال غير العبيد ، فطمع جماعة من بنى تنوخ فى هذا المال لكثرته ، ولأن ابن عم الحارث ليس معه فرسان يحرسونه فى طريقه ، فتبعوه حتّى أوغل فى الصحراء ، وأمنوا أعين الرقباء ثم انقضوا عليه فقتلوه ، ونهبوا المال جميعه ، وبلغ الحارث نبأ قتل ابن عمه ، ونهب الأموال التى معه ، وكان فى خدمته اثنان من بنى تنوخ وهما أخوان شقيقان : أحدهما اسمه مالك ، والآخر اسمه شمال ، فأحضرهما الحارث بين يديه وقال لهما : إننى قاتل أحدكما فى ابن عمى الذى قتله جماعة من عشيرتكما ، فقالا : نحن فى خدمتك ، ولا صلة لنا بأبناء العشيرة ، ولا نعلم شيئاً عن قتله ! ولا من قتله ! ولا كيف قتل ! ولا ذنب لنا ولا جريرة ، فكيف ترضى أيها الملك أن تقتلنا ونحن أبرياء ، ندين لك بالطاعة والمحبة والوفاء ؟ ! فقال : ذلك أمر لا بد منه ، فانظرا من تختارانه منكما للموت ، ومن تختارانه للحياة ، واعلما أنى بعد قتله سأذهب إلى أهله فأقتلهم جميعاً ، فقال شمال إذا كان هذا أمراً محتوماً ، لا مفر لنا منه فاقتلنى ، واستبق أخى مالكا فهو خير منى ، فقال مالك : اقتلنى أنا أيها الملك فإنى لا أرضى بالحياة بعده ، فقال الملك : سأقرع بينكما ، والحظ هو الذى يحكم فيكما ، ثم قرع بينهما ، ووقعت القرعة على شمال ، فلما علم ذلك قال لأخيه : أقرئ والدتى السلام ، وبلغها أن مولاى الملك قتلنى ، فبكى مالك وقال : اقتلنى

أنا أيها الملك ، وإلا فاقتلنا معاً ، فأصر الملك على قتل شمال ، وأمر عبيده فأطاحوا بالسيف رأسه ، ثم طرد مالكا بعد أن أخذ ماله ومال أخيه ، وأعطاه جواداً فركبه وسار به إلى أهله فى بنى تنوخ ، وهناك دخل على أمه ، ونعى إليها أخاه ، وقص عليها قصته . فقالت له : لقد قال أخوك فيما أخبرتنى أنه قال : ولو أنهم قتلوا أخى مالكا لكنت لهم حية راصدة ، أى أنه ما كان يركن إلى القعود ، وما كان يغفل عن ذكرك ، حتّى يأخذ بثأرك ويقتل الحارث قاتله ؛ فعليك ألا تنام عن ثأر أخيك ، فقال : ولن يهنأ لى عيش حتّى أقتله ، ثم أخذ سيفا كان لأبيه ، ورحل إلى دمشق مستخفياً ، ونزل فيها عند مُكَارٍ ، وأقام فى بيته ، عاكفاً على البكاء والأنين ، فقال له المكارى : ماذا بك أيها العربى ، حتّى أضناك البكاء ، وبراك الحزن والأسى ؟ ! فقال : إنى رجل غريب من بنى تنوخ ، وقد قتل الحارث سيد بنى غسان أخى ظلما ، وتركنى كما ترى . فقال المكارى : إن عندى رجلا حاله مثل حالك ، فهل أجمع بينكما ، عسى أن يكون فى ذلك تخفيف عنكما ، فقال له : كما تشاء أيها الرجل الكريم ؛ فأخذه من يده ودخل به على صاحبه ، فوجده جالساً يبكى ، فجلس إلى جانبه وقال : من أنت ؟ ومن أى العرب أيها الأخ ؟ فقال أنا لبيد من همدان ، وقد قتل الحارث لى ولداً ظلماً ، وأورثنى أحزانه وغمه ، فقال مالك ، وأنا من بنى تنوخ ، وفعل الحارث بأخى ما فعله بابنك ، وورثنى همه وحزنه ، فقال

لبيد : هل لك أن ننسى أحزاننا ، ليطيب العيش لنا ، وندبر حيلة نقتل بها الحارث غريمنا ؟ فقال مالك : وما جئت إلا لذلك . فقال لبيد : عندى رأى ، ولعلك ترتضيه ! فقال : وما هو ؟ فقال لبيد : نطلع عليه يوم عيد ميلاده ، وهو سائر وحده ، فنقتله . فقال مالك : وهل عندنا أحسن من هذا الرأى ؟ امدد يدك ، وتصافحا وتعاهدا على ذلك . وكان الحارث من عادته أن يخرج وحده يوم عيد ميلاده ، فلا يتبعه أحد من عبيده أو جنده ، وأن يفسح صدره للناس ، فيقف لكل صغير وكبير ، ولا يرد طالب حاجة . وفى ذلك اليوم خرج مالك ولبيد من بيت المكارى ، ووقفا فى طريق الحارث ، واتفقا على أن يتقدم إليه لبيد ، ويقفه ويشغله بالحديث فى ظلامة له يخلقها خلقاً ، ثم يهجم عليه مالك من خلفه ، فيطعنه بخنجره فى مقتله ، وكذلك فعلا ، وضربه مالك بخنجره فى عنقه ، وأتبعها ضربة أخرى مزقت أحشاءه ، فأقبل الناس سراعاً إليهم ، وأمسكوا الرجلين ، وقتلوهما . وذاع نبأ قتل الحارث ، فعمت الأحزان ، وامتلأ الحى بالبكاء والعويل ، ودخل شيبوب والخذروف المدينة وهى على هذه الحال ، وعرف الخذروف القصة وطار إلى عنترة ، وألقاها فى سمعه ، فعظم وقعها لديه ، وكبر قتل الحارث عنده ، وسار حتى دخل المدينة ، ونزل فى الميدان الأخضر ، وأحاط الناس به ، يحيونه وهم فرحون بقدومه ، وآسفون لقتل الحارث ملكهم . وطار نبأ عنترة إلى بنت الحارث حليمة ، فاستبشرت بقدومه ، وتعزت عن أبيها

بوجوده ، وأنزلته ومن معه فى دار فسيحة عالية البناء ، فاخرة الأثاث والرياش ، وأمدته بما يحتاج إليه من طعام وشراب ، وأقام شهراً كاملا فى ضيافة كريمة ، ونعمة سابغة ، ثم طلبته إليها ، فلما جاءها أجلسته على كرسى من الذهب المرصع بالدر والجوهر ، وبالغت فى تحيته وإكرامه والحفاوة به ، وبعد أن عزاها فى أبيها ، وخفف وقع وفاته على نفسها قالت نحن لا ننسى فضلك ، وما وصل أبى إلى الملك فى واقعة أبى الدوح إلا بسيفك ، وما دمنا متمتعين بعطفك وحنانك ، فنحن فى سرور ونعمة ، أمد الله فى عمرك ، ولا حرمنا رؤيتك وطلعتك . ولقد كنا فى شوق إليك ، والحمد لله الذى منّ علينا بوجودك ، لتطرد عنا وحشة الفرقة ، ويدوم لنا عز الأبوة ؛ فقال عنترة : عز علينا وفاة الوالد كثيراً ، ولكن من أنجب مثلك لم يمت ، وأخبرينى يا حليمة : ألم يكن لوالدك ابن يخلفه فى ملكه ؟ فقالت : بلى ، إن له ابنا واسمه عمرو ، وأخشى من صاحب الحيرة وعشائر العراق أن يأتمروا به ويقتلوه ، ويستولوا على ملك أبيه ، فتكون فجيعتى فى أبى وأخى وملكى . فقال عنترة : إن أباك لم يمت ، وإن ملكه لم يضع ، ما دمت فى دمشق ، ولن أتركها حتى أمكن لأخيك فى ملكه ، وأجلسه على عرش أبيه ، وأجعل العشائر تدين له بالطاعة والولاء ، فقالت : لقد منّ الله علينا بك فى هذا الوقت العصيب ، وأسأل الله أن يطيل عمرك ولا يحرمنا فضلك ، فقال : أحضرى أخاك حتى أراه ، فلما جاءت به

أجلسه بجانبه، واحتضنه وقبله ، وقال : أهلا بعمرو بن الحارث ملك دمشق وصاحبها ، ثم أخذه ودخل به ديوان أبيه ، وأجلسه على عرشه ، ودعا بالحجاب والوزراء والنقباء وأرباب الدولة ، فحضروا ، ثم أمر العبيد أن تنادى فى أنحاء دمشق ، بدعوة أهلها إلى ديوان الملك ، فسارعوا إلى قصر الملك وديوانه ، واجتمع منهم خلق كثير . ثم قال عنترة : يا معشر العرب ، من بنى غسان وقحطان ، اعلموا أن الحارث عاش فيكم ملكاً كريماً ، حريصاً عليكم ، رحيما بكم ؛ وقد كانت بينى وبينه مودة وصداقة ؛ وهذا الغلام عمرو بن الحارث ، وقد وليته ملكاً عليكم ، فمن والاه فقد والانى ، ومن عاداه فقد عادانى ، فبايعوه كما بايعتم والده ، وسأحميه بسيفى ، ثم أوسع له فى ملكه ، وأقصم له ظهور أعدائه ، فقالوا : لله درك يا أبا الفوارس ! اشهد علينا أننا بايعناه ، وهو ملكنا ، وصاحب الحل والعقد فينا ، ونحن فى طاعته كما كنا فى طاعة أبيه ، وليس لنا حاكم سواه ، فقال عنترة : واشهدوا علىّ أنتم أنى أكفيكم شر أهل الشرق والغرب : والترك والعجم والديلم والروم والإفرنج ، وأنا لكم وبين أيديكم ، فشكروه وانصرفوا فرحين بما فعله ، وبمقامه عندهم ثم أخذه ودخل على حليمة أخته فقال : لقد كان أخوك على عرش الملك وجيهاً ، وقد بايعه الخاص والعام ، وأصبح ملكاً عظيمُ الشأن . فقالت : بارك الله فى حياتك ، وجعلك ردءاً للضعيف والمظلوم ، ثم أحضرت عبلة

وزبيبة ومسيكة إلى بيتها ، واحتفت بقدومهن ، وقدمت لهن مائدة حوت من الطعام ما لذ وطاب ، وأهدت لهن خلعاً قيصرية ، وثياباً سنية ، وعشر جوار كأنهن الأقمار لكل واحدة منهن ، وكثيراً من المسك والعنبر وعقود الجوهر ، فشكرنها وأثنين عليها وانصرفن إلى منازلهن ، ومع كل واحدة هداياها ودخل عنترة على عبلة فرأى الجوارى والهدايا ، وقالت له : هذه منحة حليمة بنت الحارث ، وقد منحت مثلها كلا من أمك زبيبة ، ومسيكة ؛ ففرح عنترة ومضى إلى أمه ، فوجد عندها شيبوبا والخذروف ، فاستقبلته فرحة ، ودعت له بالهناءة والتوفيق ، والنصر على من يناوئه ويعاديه ، فهنأها بما أخذته من الهدايا ، فقالت : رفع الله شأنك ، وأعز جانبك ، فأنت الذى أعليت شأننا ، ورفعت قدرنا ، ثم عاد إلى عبلة ، وجلس يتحدث إليها ، فدخل عليه شيبوب إذ ذاك وقال : بالباب خادم رومى جميل الخلق يطلب الدخول إليك ، فقال له : دعه يدخل ، فلما دخل حيا ووضع بين يديه ثلاث خلعات مقصبات من ملابس الحارث ، ذات ألوان مختلفة ، وثلاث عمائم ، وثلاث مناطق من ذهب مطعم بفصوص الياقوت ، وبعضاً من المسك والعنبر ، وفرسين من الذهب ، ورمحين مصفحين بالذهب ، وعمودين من ذهب ، ودرعين مموهتين بالذهب ، ثم قال : يا مولاى ، سيدتى حليمة تهدى إليك السلام ، وتقول هذه الأشياء لأبيها ، تهديها إليك ، وترجو منك أن تجلس كل يوم فى الديوان

حتى لا يتقاعد أو ينقطع أحد عن عمله وخدمته ، فقال عنترة : بلغها السلام وقل لها : سمعا وطاعة .

ولما طلع النهار لبس عنترة أفخر ثيابه ، وذهب إلى الديوان ، فوجده مفروشاً بالفرش المنمقة ، وتوزعت فيه الغلمان ، كأنهم الولدان الحسان ، ووضعت فيه المباخر الذهبية والفضية ، تتنفس بالرائحة الذكية ، وصفت الكراسى العاجية المطعمة بالذهب والفضة ، فجلس على كرسى الملك ، وأقبلت إليه الحجاب والنواب والوزراء وأرباب الدولة ، وجلس كل فى مكانه ، ثم أقبل الملك عمرو بن الحارث ، وعلى رأسه تاج الملك فقاموا تعظيما له حتى جلس على عرش أبيه ، ثم جلسوا جميعاً . وحينئذ وقف عنترة فقال : يا معشر الأمراء والوزراء والسادة ؛ من كانت له وظيفة فى أيام الحارث فهو فيها ، لا تغيير ولا تبديل ، ومن كان له مال فليأخذه ، لا ظلم ولا جور ، وكل من قصر فى عمله أو حقد على أخيه ، أو انحرف عن السبيل القصد قتلته بسيفى هذا . فقالوا : سمعا وطاعة ، وقد رضينا بحكمك ، حتى يبلغ ملكنا رشده ، فقال : ذلك ما يكون .

١٠

وشاعت الأنباء بموت الحارث الوهاب ، فدخلت بلاد الروم والحيرة والعراق ، واتصل الملك الأسود بالملك كسرى ، وأخذوا يتشاورون فى غزو دمشق والاستيلاء عليها بعد أن مات ملكها الحارث ، وبينما هم يتشاورون أخبرتهم الجواسيس أن الحاكم فيها عنترة بن شداد ، فقالوا : لا طاقة لنا بعنترة ، وقد أبرم بيننا وبينه عهد صداقة ومودة ، وما دام هو حاكمها فهو منا ونحن منه ، أما قيصر ملك الروم فإنه سأل : ومن تولى أمر البلاد بعد موت الحارث ؟ فقالوا : ابنه عمرو ، وهو غلام صغير ، فقال : وما منعه أن يأتى إلينا ، لأجعله والياً عليها ، وملكاً لها ؟ فقالوا : إن عنده من أرض الحجاز بطلا جسوراً ، قهر بسيفه الملوك والأكاسرة ، وهو عنترة ابن شداد العبسى ، وهو الذى أجلسه على عرش أبيه ، وأخذ البيعة له من جميع العشائر ، وقال : إذا لم يرض بما فعلته الملك قيصر سرت إليه وقتلته ، وملكت بلاده ، وقد عزم أن يأتى إليك بالملك عمرو بن الحارث قال قيصر : وكيف تركه كسرى يفعل ذلك ؟ فقالوا : لقد فكر فى الاستيلاء على دمشق هو وملكه الأسود ، ولكنهم سمعوا أن الحاكم فيها عنترة بن شداد ، فانصرفوا عنها ، وقالوا : لا طاقة لنا بعنترة ، فقال

قيصر : لقد خلص منى هذا البطل الأسرى والرهائن من خيار القوم ، وفعل ما يفعله كل كريم ، وحق المسيح لئن أتانى وطلب منى الولاية لابن الحارث لأقضين طلبته ، ولأمنحنه الهدايا ، ولأرجعنه من عندى فرحاً مسروراً ، ولن أترك عشائرى تبتلى بحربه وقتاله .

ودخل رسول قيصر على عمرو بن الحارث وقال : إن الملك يحب أن يرى عنترة بن شداد ، لأنه شديد الإعجاب به ، وقد بعثنى إليك فى هذا فأحضر عمرو عنترة إليه ، وبلغه رغبة قيصر الروم فى أن يزوره ، لأنه فرح به ،ويحب أن يراه، فقال عنترة : ومن أحبنا أحببناه ، ومن رغب فى زيارتنا له زرناه ، فقال عمرو : وأحب أن أكون معك . فقال : هيا بنا على بركة الله ، ونهض عنترة يتأهب للرحيل ، فدخل على عبلة وأخبرها فقالت : إنى لخائفة عليك من بلاد الروم ، وإنى لأشد خوفاً على نفسى بعد أن ترحل عنى ، فقال لا تخافى ، فورب الكعبة لن يجرؤ أحد أن يمسك بضر ، سواء أكنت فى منام أم يقظة ؛ وخرج عنترة وعمرو ومن معهما إلى القسطنطينية فلما أشرفوا عليها سبقهم الرسول إلى قيصر ، وبلغه قدوم عنترة وعمرو بن الحارث . فأمر قيصر أن تصف فى الديوان الكراسى الذهبية ، وترخى الستائر الحريرية ، وتفرش البسط السندسية ، ثم أمر أن يتفضل عنترة وعمرو لتشريف ديوانه ، وقال عمرو لعنترة : يحسن أن تختار مائتى رجل وجهاء فى زينتهم ، لندخل على قيصر

وهم معنا ، فذلك بنا أكرم وأليق ، وأجمل روعة فى نفس قيصر وحاشيته وجنده . فقال عنترة : أجمل بما رأيت ! ! ولبس عنترة خلعة كان قد منحه إياها كسرى ، وعمامة أرخى لها ذؤابات ثلاثا ، وشد وسطه بنطاق من الذهب ، كان للملك المنذر ، وعلق فيه خنجره ، ثم دخل المدينة هو وعمرو بن الحارث وخواص دولته وبنو عمه ، فتلقاهم الملك وأصحابه ورعيته ، وحجابه ورؤساء دولته بالطبول ، والمزامير ، والأعلام الخفاقة ، وكان أمامهم طائفة من الجند فى ملابسهم الرسمية حفاوة بهم ، وعجب الناظرون من أهل المدينة حينما رأوا عنترة ، وربطوا أعينهم به أينما سار ، لعظم جسمه وطول قامته ، وسعة عينيه ، وامتداد يديه ورجليه ، فدخلوا باب القصر ، ومشوا على بسط رومية ، وعن يمينهم وشمالهم البطارقة والحجاب . ودخلوا الإيوان فوجدوه قد زين أحسن زينة ، وفرش بالحرير والديباج وصفت فيه الكراسى العاجية المطعمة بالذهب وأنواع الجواهر ، وأقيم فيه سرير من ذهب أحمر ، وقد طلى الإيوان بالذهب ، وفيه صور بديعة ، منها صورة عيسى وأمه مريم وجماعة من الحواريين ، ومن تبعهم من المتقدمين السالفين ، وكان قيصر جالساً على هذا السرير الذهبى ومن حوله الغلمان والبطارقة ،وجىء بكرسى من الذهب بين يديه ، وجلس عنترة فى أدب واحتشام ، وجميع الحاضرين شاخصون إليه ، وهم فى إعجاب عظيم من ملابسه وأدبه وتواضعه ، ثم دخل الغلمان

والخدم ، ووضعوا أمام كل واحد مائدة ، حوت من ألوان الطعام وأفخمه ما يكفيه ، فأكل كل منهم طعامه حتى شبع ، أما عنترة فجعل يأكل ، وكلما فرغ الطعام ، جاءوا له بمائدة أخرى ، حتى أكل وحده عشر موائد ، والناس والملك يعجبون ثم أحجم عن الأكل حياء ، وإن كان لا يزال جوعان .

ثم قام وأخذه الخدم إلى دار شاهقة ، فسيحة فقال عنترة : أريد خيامى وقبابى ، فقالوا : إنها محفوظة ، ولكن هذه الدار أعدها لك الملك قيصر . فلما دخلها وجدها قد أعدت له ، على أحسن ما يعد قصر لأعظم ملك ، ووجد فيها خيامه وقبابه ، وعبيده وخيله ، وجعل الملك لهذه الدار خدماً يقومون بكل ما يحتاجون إليه من طعام وشراب وخدمة ، فقضى عنترة ليلته فى أوسع نعمة ، وأكرم عيشة . وفى الصباح أدخلوه الحمام فاغتسل ، ولبس خلعة سنية ، ثم ركب وأخذه جماعة من الغلمان إلى الميدان ، الذى أعد ليبارز عنترة فيه أبطال الروم فوجده فسيح الجنبات ، يمتد إلى مسافة تقدر بالفراسخ ، قد امتلأت جوانبه بالفرسان والعشائر ، وإذ ذاك أمر الملك قيصر المقدمين أن تبدأ المبارزة ، فبرز رجل من الروم ، وجعل يلعب فى الميدان برمحه وسيفه وأرسل الملك إلى عنترة رسولا فقال له : لا تبرز إلى هذا البطريق حتى ترى ما يفعله ، فلبث عنترة فى مكانه ليرى ما يكون من هذا البطريق ، فماذا

رأى ؟ رآه بطلا جباراً ، شجاعاً ماهراً ، فقد غلب خمسين مبارزاً ، وأبدى من ألوان المجالدة والمصاولة العجب العجاب . فقال عنترة لشيبوب : ائتنى من الدار بالدرقة ، ورمحى الحديدى ، والدروع الثلاث ، وهى درع ابن الجلاح اليثربى ، ودرع الملك الحارث ، ودرع الملك المنذر ؛ فمضى إلى الدار ورجع فى الحال ومعه خمسة غلمان من الروم يحملون الدروع الثلاث والرمح الحديدى ، أما الدرقة فقد حملها شيبوب ، وكان الرمح الحديدى ذا أنابيب ، تتداخل أطرافها بعضها فى بعض ، وعددها أربع عشرة أنبوبة ، فوصل عنترة بعضها ببعض ، وألف منها رمحه ، الذى أثار عجب قيصر ودهشته ، وأيقن فى نفسه أنها تقتل من يراها من الفزع قبل أن تلمسه ، ثم لبس الدروع الثلاث ، ووضع البيضة على رأسه ، وركب جواده الأبجر ، وقال لشيبوب : ناولنى الدرقة ، فثقلت عليه وهو يحملها فمد عنترة يده ورفعها ، وتعلق شيبوب بها ، فرفعه معها ، ثم رماه فى الميدان ، فسقط فى مكان بعيد واقفاً على قدميه ، كأنه قائم من جلسته ، فضحك قيصر وقال : ما رأيت أعجب من هؤلاء الشياطين . ثم رمى عنترة الدرقة فى الهواء ، وجرى بجواده تحتها فى أقصى سرعته ، وشيبوب يجرى بحذائه فلا يسبقه جواد أخيه ، فعجب الناظرون والملك من سرعة جرى شيبوب وخفته ، وقال الملك : أهذا الذى جرى بحذاء جوادك شيطان أم إنسان ؟ ! فقال : إنه أخى ، يصيد الغزلان بيديه ، والأرانب برجليه ،

وابنه الخذروف أسرع منه جرياً وأخف حركة ، فقال : أود أن ترينى شيئاً من أفعالهما ، فقال : سمعا وطاعة .

اندفق عنترة بجواده فى الميدان ، وقصد البطريق الذى غلب خمسين مبارزاً من الفرسان ، فصوب إليه البطريق رمحه ، وهجم بجواده عليه ، فخطف عنترة الرمح من يده وكسرها ورماه فى صدره بقطعة منها ، فألقاه عن جواده ، ثم نهض البطريق من سقطته ، وخرج من الميدان يتعثر فى أذيال هزيمته ، وبرز إلى عنترة بطريق ثان كأنه الجمل الهائج ، وفى يده سيف هندى . وحاول أن يصيبه به ، ولكن عنترة دنا منه وأمسكه من تلابيبه ، ونزعه عن سرجه ، وألقاه على الأرض بعيداً عنه ، فقام ينفض التراب عن رأسه وثيابه ، وذهب خجلا من عاقبته ؛ وجاء بطريق ثالث يفور حماسة وجرأة ، وتركه عنترة يجرى ويدور من حوله بجواده فى سرعة وخفة ، ثم مد عنترة يده ، ووضعها على رأس هذا البطريق ، واتكأ عليه بشدة وقوة ، فوقف جواده ولم يقدر أن يتحرك هو وجواده ، فقال : الصنيعة يا عنترة ! فرفع يده عن رأسه ، ومضى معترفاً بعجزه وهزيمته ، واستمر عنترة على هذه الحال ، حتى منتصف النهار ، وكان قد غلب ألف فارس كرار ، فخلع الملك عليه الخلع الغوالى ، ورجع إلى القصر وعنترة راكب بجانبه ، وكان الطعام قد أعده الخدم فأكل منه الخاص والعام وجلس عنترة يتحدث إلى الملك عن حروبه ومواقفه حتى جاء الليل .

وفى اليوم التالى كان الملك قد نصب فى الميدان حلقات من ذهب ، وجعل الفرسان يطعنون فيها بسيوفهم ورماحهم من بعيد وقريب ، فمنهم من يخطئ ومنهم من يصيب ، فقال عنترة : كم عندك من هذه الحلقات أيها الملك ؟ فقال : أربعمائة وسبعون حلقة وكل حلقة مائة مثقال من الذهب . فقال عنترة : قل لغلمانك تنصب الحلقات جميعها ، وسأكر عليها واحدة واحدة ، وإن لمست إحداها فكسروا سيفى وهشموا رمحى ، فقال الملك : ولك عندى أن تأخذ كل حلقة لم تخطئ فى إصابتها ، فجعل عنترة كلما أصاب حلقة أخذها ، وما انتصف النهار حتى كانت الحلقات جميعها فى حوزة شيبوب ، فعجب الملك وقال : ما هذا فعل بشر ثم رجعوا إلى القصر وأكلوا وشربوا وأخذوا يتحدثون حتى جاء الليل وذهب عنترة إلى داره ، وكان اليوم الثالث يوم المصارعة ، كما أمر الملك بذلك ، وقال الملك لعنترة : أريد أن ترينى اليوم مصارعتك ، فإن عندنا مصارعين كثيرين ، حذقوا وجوه المصارعة ، ومهروا فيها ، فقال عنترة : وعليك أن توصيهم بالتزام حدود الأدب والإنصاف ، فإنه إذا بغى أحد منهم أنزلت به الوبال ، فوصاهم الملك بذلك ، وقال لهم : إذا قهر عنترة أحداً منكم وجاوز العدل وعارضه ، ثم فتك به فقد أخذه بذنبه ولا لوم عليه . فتقدم إليه المصارعون وهو يغلبهم واحداً فى إثر آخر ، حتى جاء بطريق وكان كلما غلبه عنترة تصدى له وحاول أن يغلبه ، وأمهله عنترة مرة وأخرى فما

ارتدع ، فوضعه بين رجليه وعصره ففاضت روحه ، فهاج القوم وماجوا ، ثم نادى الملك : من يريد منكم أن يخرج للمصارعة ؟ فلم يخرج إليه أحد بعد ذلك ، ثم قال الملك : أريد أن تريني سرعة شيبوب وابنه الخذروف فى الجرى وخفة الحركة ، فقال عنترة : أحضر جوادين عربيين ، واجعلهما يجريان فى الميدان بأقصى سرعتهما ، وأحضر جماعة من الغزلان واجعلها تنفر فى الميدان شاردة ، وسيجرى شيبوب وابنه الخذروف معها ، وسترى من السابق ، وكان قد أعد كيسين مملوءين ذهبا ليكونا هبة لهما إذا سبقا ؛ ففعل الملك ما أشار به عنترة عليه ، وكان شيبوب وابنه السابقين ، فناولهما الكيسين وقال : لو أن العرب جميعهم مثل شيبوب وابنه لملكوا الأرض . ثم قال لعنترة : اجعل مقامك عندى ، وستكون المقدم فى مملكتى ، والحاكم بأمرك فيها ، فقال عنترة : لا أستطيع المقام طويلا بين الجدران ، ولا يهنأ لى عيش ولا حياة إلا فى البرارى والقفار ، ولا أستطيع أن أفارق الأصحاب والخلان ، وأخص منهم عمرو بن الحارث ، ولكنى أزورك إن شاء الله . وبعد ذلك استأذنه عنترة فى الرحيل فأذن له ومنحه وشيبوبا وابنه وعمرو بن الحارث كثيراً من الأموال والهدايا ، ثم جعلوا يقطعون القفار حتى دخلوا مدينة دمشق ، ففرح أهلها بهم وبملكهم عمرو بن الحارث ، ودخل عنترة على عبلة ففرحت به ، وسألته عن أحواله فى غيبته ، فقص عليها كل شىء وأخذت منه الأموال والهدايا فسرها علو

كعبه ، وارتفاع شأنه ، وعظيم هيبة الناس له . وعاش فى دمشق أياماً قضاها فى الصيد والقنص واللهو والراحة ، حتى جاءه ورقة بن زهير فى مائة فارس ، وألقى كل منهما نفسه بين أحضان الآخر ، وكان اللقاء حاراً ، بدا فيه الشوق والسرور بأجلى مظاهرهما ، ثم نزل هو ومن معه فى الخيام ، وأقاموا فى ضيافة عنترة ثلاثة أيام ، أكرمهم فيها عنترة إكراماً سابغاً ، وقال ورقة : إن أخى قيسا أرسلنى إليك ، لأكون شفيعاً عندك للرجوع إلى ديارك وأوطانك ، فقال عنترة وهو مستبشر فرح : لقد كنت سائراً إليكم فى هذه الأيام ، ثم استأذن عمرو بن الحارث فى الرحيل ، فأذن له وهو أسف لفراقه ، ورجا منه أن يزوره كل عام .

١١

سار عنترة ومعه ورقة بن زهير وفرسانه حتى أشرفوا على الديار ، فوجدوا الحى يموج بأهله ، فى صياح وبكاء ، فسأل عنترة عن ذلك ، فقيل له : قتل الحارث بن زهير وزوجته لبنى ، فحزن حزناً عظيما وقال : ومن قتلهما ، فقالوا العيقفور بن عرعر ، ثأراً لأخيه الذى قتلته ، وكان الحارث السبب فى قتله ، فقال : وكيف قتله وزوجته ؟

فقالوا : طلبت لبنى من زوجها الحارث أن يأذن لها فى زيارة أبيها وأهلها لأنها فى شوق عظيم إليهم ، فأذن لها وأركبها ناقة فى هودج حريرى جميل ، وركب جواده فى خمسين فارساً، وساروا إلى بنى زهران واستقبلهم أبوها شامة ابن يقظان ، وهو فرح بلقاء ابنته وزوجها الحارث ، وفى شوق عظيم إلى رؤيتهما ، وأقاموا عنده ثلاثة أيام مكرمين ، ثم استأذنوا ورجعوا إلى ديارهم وكان العيقفور قد عرف قدوم الحارث وزوجته للزيارة ، فجمع أعوانه وأفضى إليهم بذات نفسه وقال : إن عنترة بن شداد قتل أخى وأخذ لبنى وزوّجها من الحارث بن زهير بعد قتله ، وإن الحارث هذا الذى كان سبباً فى قتل أخى جاء عند حماه زائراً ، وأريد أن نرقبه لنخرج عليه فى الطريق ونقتله ، لأشفى غليل صدرى بقتل من كان سبباً فى قتل أخى وأخذ لبنى التى كان يهواها منه ، فقالوا : نحن معك حيثما حللت ، ثم كمنوا له فى الطريق ، وبينما الحارث سائر إلى دياره خرجوا عليه ، فعرفهم الحارث وقال لفرسانه هذه خيل العيقفور ، وقد جاءوا ليثأروا منى ، فقاتلوهم بقوة ، فإن متنا متنا كراماً ، وإن حيينا حيينا كراماً ؛ ثم قال لزوجته ، قد يكون هذا اليوم يوم الفراق ، فلا تحزنى فالله معك فاستلت خنجرها وقالت : هذا خنجرى فى يدى ، فإن كانت القاضية فسأقتل نفسى به ، فإنى لا أستطيع الحياة بعدك ، واشتبك الفريقان ، وهجم العيقفور على الحارث هجمة باغتة ، وطعنه بالرمح فى صدره فأرداه قتيلا ،

ثم فر بقية فرسانه وكان قد قتل منهم اثنا عشر فارساً ، وقتلوا من بنى زهران ثلاثين ، وجاء العيقفور ووقف على رأس لبنى وهى تبكى فقالت : شلت يمينك ، فقد قتلت سيد قومه ، ورئيس قبيلته ، ثم غرزت خنجرها فى صدرها ففاضت روحها ، فتأثر العيقفور من بكائها ، وقتلها نفسها ، ودفنوها وزوجها فى قبر واحد ، ورجعوا إلى أبيها فأخبروه ما فعلت فقال : لله درها ، وخيراً فعلت . وحزن أهلها عليهما حزناً أليماً ، وبلغ بنى زهران ما فعله العيقفور فقالوا له : لقد أضرمت بفعلتك هذه ناراً ستأكل منا كل طريف وتليد ، وصغير وكبير ، فإن بنى عبس لا يقعدون عن ثأر لهم ، وما نحن بقادرين على ردهم ، فقال : قتلته وأنا أعلم ذلك ، ولهذا فإنى راحل إلى بنى بجيلة ، وأستجير بالهضام ، فطابت بذلك نفوسهم ودخل العيقفور على ابن عمه الهضام ، وحكى له ما فعله ثم قال : وقد جئتك مستجيراً فأجرنى ، فقال له : طب نفساً فقد أجرتك وحميتك من كل شر وأذى ، ثم أعد جيشه وسار به إلى بنى زهران ، ولبث فى ضيافتهم ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع قال لهم : ما جئتكم زائراً هذه المرة ، ولكنى جئتكم فى طلب بنى عبس لقتالهم ، فأردت أن أسير إليهم قبل أن يسيروا إلينا ، ففرح بنو زهران ، لأن الهضام سيطرد الشر عنهم ، وكان جيشه عشرين ألفاً من أربع قبائل : بجيلة ، وكهلان ، والرهاط ، وزهران ، وسار الهضام به حتى التقى بجيش عنترة

بن شداد فى الطريق .

بلغ الملك قيسا نبأ قتل الحارث أخيه وزوجته ، فكان وقعه أليماً · نفسه ، وعزم أن يسير لساعته ، ليأخذ بثأره ، وسار عنترة فى ستمائة فارس ومعه زيد بن عروة فى رجال أبيه ، وأخذ ورقة بن زهير ونوفلا أخاه ، أما قيس فقد حلف عليه عنترة أن يقعد فى الحلة . ولما وصل إلى قبر الحارث أقام عنده ثلاثة أيام باكياً ، وذبح عليه مائة ناقة ، ثم رحل فى اليوم الرابع طالباً بنى زهران ، حتى التقى بجيش الهضام ، ونشبت بين الجيشين معركة أليمة مفزعة ، دامت رحاها دائرة حتى قدم الليل ، وانفصل الجيشان .

ولما طلع النهار عادوا إلى القتال ، فبرز العيقفور إلى الميدان وصاح قائلا : ويل لكم يا بنى عبس ، هذا يومكم الذى فيه تصعقون ، أنا العيقفور أخو الخيشعور ، قتلت الحارث بن زهير ، وسأبيد اليوم صغاركم وكباركم ، فبرز إليه ميسرة ، وحمل عليه حملة منكرة ، وأخذا يجولان ويصولان ، ويكران ويفران ، حتى غطاهما الغبار ، وعنترة فى إشفاق على ابنه ، الذى لم تبق له الأيام غيره ، ولم يفق من إشفاقه وقلقه حتى انفرج الغبار عن قتل العيقفور . وجعل ميسرة يجول فى الميدان منتظراً من يخرج لمبارزته ، فجاءه الهضام بن مسروق ، وجعله فى أشد حالات العسر والضيق ، ثم طعنه فى صدره ، فوقع غريقاً فى دمه ، ورأى ذلك عنترة

فغشى عليه ، وما أطاق الهطال صبرا ، فبرز إلى الهضام وهو فى ثورة الحزن على ميسرة ابن خاله ، ومرت بالفارسين ساعات شدة ، وجولات عنيفة ، امتدت إليها الأعناق ، وشخصت الأبصار ، وكان ختامها قتل الهطال ، وكان عنترة قد أفاق من غشيته ، ورأى مصرع ابن أخته بعد قتل ابنه ميسرة ، فأحب الموت العاجل ، وغمز جواده فانفلت به إلى الميدان ، وقال : لا تحسبن أنى قاتلك فى ابنى وابن أختى ، ولكنى سأقتلك وقومك ، ولن أبقى منكم أحدا . فقال الهضام : لقد غرتك الأيام ، وظننت أنها ستدوم لك ، وغفلت عن أنها غير دائمة ، فحيناً تسرك وحيناً تحزنك ، وما أنت إلا فى آخر أيامك وسأثأر اليوم لجميع العرب بقتلك ، فقال عنترة : لقد خدعك جهلك إذ أيقنت أن قتل ابنى وابن أختى أضعف عزيمتى ، أو بغض إلىّ الكفاح ، وظننت لهذا أنك ستفلت من يدى ، ثم هجم عليه هجمة الموت القاسية ، وضربه بالسيف على رأسه فشقه إلى بطنه ، فوقع على الأرض وداسه بسنابك جواده الأبجر ، وشفى غليل صدره بقتله ، فانطبق الجيشان ، وكان يوم تشيب له الولدان ، ثم أقبل الليل فاستقرت السيوف فى أغمادها ، وذهب الفرسان إلى منازلهم ، وكان بنو عبس غالبين . ودب فى بنى زهران الخسران المبين ، فقال بعضهم لبعض : لنجعل دروعنا قبورنا ، ولنصبر على القتال حتى لا يبقى منا أحد ، فإننا إن فررنا أهلكنا بنو عبس ، وما تركوا منا دياراً ولا نافخ

نار ، ولما تنفس الصبح هجم عليهم عنترة وبنو عبس فأسروا منهم سمّائة وأبادوا بقيتهم ، ثم أحضر عنترة الأسرى بين يديه فذبحهم جميعاً وغنموا أموالهم وأسلابهم ، وكان هذا الفناء الشامل ثأراً لابنه وابن أخته ، ثم تابع سيره إلى أحياء بنى بجيلة وكهلان ، فلما أحسوا قدوم عنترة تركوا الديار وفروا يهيمون فى القفار . فقال عنترة : هذا شأن الأغنام إذا شمت رائحة الأسد فرت هاربة مشردة ؛ ثم أخذ أموالهم ، وسبى نساءهم وأولادهم ، وترك ديارهم خراباً ، ثم رجعوا إلى مكان المعركة ، فأخذوا ميسرة والهطال وكفنوهما وحملوهما على ظهور الجمال ورجعوا طالبين الديار .

* * *

وفى أثناء سيرهم رأوا غبرة لفرسان سائرين ، فوقف عنترة ومن معه ، وأراد أن يبعث من يأتيه بأخبار هؤلاء القادمين ، ولكنهم رأوا فارساً قادماً إليهم ، ولما وصل قال : أيها العرب ، أخبرونا بأنسابكم ، فإن كنتم من أعدائنا فقد حلت بكم الندامة ، وإن كنتم من أصدقائنا فأبشروا بالسلامة ، أما هذه الخيل التى ترونها فهى من بنى قضاعة ، ومقدمها عمرو ذو الكلب ، وأخته الهيفاء قناصة الرجال ، فخرج إليه فارس من بنى عبس ، اسمه أسيد بن ماجد وقال : نحن فرسان بنى عبس ، ومقدمنا أبو الفوارس عنترة بن شداد فسكت الفارس ولم ينطق بكلمة ، ولوى عنان جواده وانطلق إلى صاحبه ، وبلغه ما سمع ، فاهتز الفارس طرباً وقال : هذا

الفارس قاتل ابن عمى المتعنجز بن فايز القضاعى ، وهو الذى أمسكه وسلمه إلى خفاف بن ندبة فأجمل بهذا اليوم الذى تقر فيه عينى ، بأخذ ثأرى .

وكان لعمرو هذا أخ اسمه عنان ابتلاه الله بأكل لحوم الأسود ، فكان يذهب إلى الغابة ويمسك الأسد بيديه ، ويقطع رقبته بأسنانه ، ثم يجلس إليه ، ويأكل من لحمه ، ويشرب من دمه ، وذات مرة أخبروه أن أسداً قرب من البرية ، وكان هذا الأسد مغرماً بأكل لحوم الإنسان ، فذهب عنان إليه ، ولكن الأسد غلبه فهجم عليه ولطمه فصرعه ، ووضعه بين يديه ، وجعل يأكل من لحمه ، ولما عاد جواده إلى أخيه من غيره أدرك أن أسداً افترسه ، فركب جواده وجرد سيفه وجرى نحوه ، فوجد الأسد يأكله ، فانقض عليه وضربه بسيفه فشقه نصفين ، ثم جمع ما بقى من لحم أخيه ودفنه ، وحلف أن يقتل فى ثأر أخيه مائة سبع ، فكان يصيد الأسود ويذبحها على قبر أخيه ، فهابه العرب ، وجعلوا يرسلون إليه الأموال ، ليتقوا بها شره ، واتخذ كلباً من كلاب الصيد ، ووضع فى عنقه طوقاً من الذهب وقلادة من الجوهر ، وغطى جسمه بالحرير المحلى بالذهب ، ووكله إلى مائة عبد ، يطوفون به على القبائل ، ويقولون : هذا كلب عمرو بن جلهمة القضاعى ، فلا تخافوا على أموالكم وعيالكم ما دام هذا الكلب حارسكم وحاميكم . فكانوا يحملون إليه المال من أجل ذلك ، وسموه عمرا ذا الكلب ،

وكان له أخت اسمها الهيفاء ، وكانت من أجمل النساء ، قوية متينة الأعصاب جريئة القلب ، فعلمها الفروسية ، حتى مهرت فى الضرب والطعن ومبارزة الأبطال ، فكانت تهجم وحدها على الحلل وتنهب الأموال وتقتل الأبطال ، وكان لها ابن عم جميل الشكل ذو شجاعة وقوة ، اسمه قتادة فأحبها وأغرم بها ، فرآها ذات يوم ، وأفضى إليها بما يكنه لها فى قلبه من محبة ، ورجا منها أن تسمح له بالجلوس إليها والتحدث معها ، فأمسكت عنقه بيد ، ورجليه باليد الأخرى ، ورفعته إلى السماء ، ثم ضربت به الأرض فمات ، فصاح الناس وماجوا ، وقيل : إن الهيفاء قتلت ابن عمها قتادة ، ووصل هذا الخبر إلى أخيها عمرو ، فسألها : لم فعلت ذلك ؟ فأخبرته بما قاله لها ، فسكت وهو فى عجب من أمرها ، فهابها الرجال من ذلك الحين وكانت تغير مع أخيها على القبائل ، حتى كان فى طاعتها كثير منها ، وذات يوم قدم عليهم بعض العبيد الذين وكل إليهم الكلب وهم يبكون ، فسألهم عما أبكاهم فقالوا : كنا نطوف بالكلب على القبائل ، فلقينا فى الطريق خمسمائة فارس ، وعلى رأسهم عمرو بن لاطية السلمى ، وعرفنا منهم أنهم من بنى سليم ، فعظمناهم وأثنينا عليهم وطلبنا منهم للكلب أجرة حراسته ، فغضب وقال : لسنا ممن يعطى أجرة لحراسته ، ولولا أنى أخشى أن يلوث سيفى بدم هذا الكلب لقتلته وقتلتكم معه ، ولكنى سأقطع أذنيه ، وأسِمُه على خرطومه ، وأتركه إلى صاحبه ، ليكون الهوان له لا لكلبه ، ثم

هجم علينا وقطع أذنى الكلب وعلقهما فى عنقه ، وشق خرطومه وتركه . فثارت ثائرة عمرو ذى الكلب ، وسار إلى بنى سليم فى ستمائة من قومه . فأغار على مراعيهم ، ونهب أموالهم وشرد عبيدهم ، وذهبوا إلى عمرو بن لاطية وأخبروه ما حل بهم من عمرو ذى الكلب ، فخرج إليه فى جيش من قومه ، وقامت بينهما حرب طاحنة دامت ثلاثة أيام ، ودارت دائرتها على بنى سليم فقتل عمرو بن لاطية ، وقتل كثير من رجاله ، وغنم عمرو ذو الكلب أموالهم وأسلابهم ورجع بأخته الهيفاء ورجاله فرحين غانمين . وبينما هم سائرون وجدوا عنترة وجيشه فى طريقهم ، وأصر على أن يأخذ منه بثأر أخيه .

ولما التقى الجيشان برز عنترة إلى الميدان وقال : يا بنى قضاعة ، هاتوا أموالكم ، وانجوا بأنفسكم ، وليبطل عمرو ذو الكلب سنته ، وإلا فعلت بكم ما فعلته بالأسد الرهيص وقومه ، فوثب عمرو القضاعى إلى الميدان وقال : تباً لك يا عنترة ! أتهددنا بما فعلته بالأسد الرهيص وقومه ؟! وأين الأسد الرهيص من عمرو القضاعى ؟! لقد وقعت اليوم فى يد من لا يرحمك ، ولن أتركك إلا طريح الثرى ، طعاماً لوحش الفلا ؛ ثم حمل كل منهما على صاحبه ، ودامت المبارزة بينهما ثلاثة أيام ، ذاق فيها عمرو ذو الكلب الأمرين ، ورأى الموت غير مرة رأى العين ، لأن عنترة كان يمهله ويستبقيه ، ليعجزه ويُعييه ، ويرهقه ويضنيه ؛ ولما انخلع قلبه وانخرعت

قواه ، ألقى سلاحه ، ونزل عن جواده وقال : يا عنترة بن شداد ما رأيت مثل بطولتك بين العباد ، فأعفنى من القتال ، واتخذنى لك صديقاً وفياً ، وخادماً أميناً وقد أصبحت من الآن عبسياً ، وصرت منك بمنزلة أبنائك أو إخوتك ، ففرح عنترة وقال فى نفسه : عسى أن أجد فيه عوضاً عمن فقدته من أبنائى ، ثم عفا عنه وعاهده على الولاء والوفاء ، وانطلق عمرو إلى قومه ، وبلغهم ما جرى بينه وبين عنترة ، فقالت أخته : وأنا معك وقد عددت نفسى من الآن عبسية ، وقال قومه : ونحن كذلك عبسيون لا قضاعيون ، وانضم الفريقان ، وتآخوا على الولاء والصفاء والمعاونة ، ودخل بهم عنترة دياره ، وأنزلهم فى منازله ، وأسبغ عليهم كرمه ، وأمدهم بأمواله ، وأقبل عليه أهل الحى يعزونه وهم باكون ، ما عدا الربيع بن زياد وأخاه عمارة ، فما أتيا لتعزيته ، وبدا ما فى صدورهما من فرح وشماتة .

وذات يوم خرج عنترة وعمرو ذو الكلب وأخته الهيفاء وزيد بن عروة إلى البرية للصيد والقنص ، وقضوا فيها ثلاثة أيام ، ثم رجعوا فرحين بما غنموا من صيد ، فوجدوا الحى يموج بمن فيه حزناً وبكاء ، فسأل عنترة عما حدث فقيل له : قتل شيبوب أخوك . فكاد يخر صعقاً ، وجاءه الخذروف يجرى باكياً مشقوق الجيب ، يحثو التراب فوق رأسه ، فلما رآه عنترة خر مغشياً عليه ، وتأثر عمرو ذو الكلب وفرسانه فبكوا بكاء مرا ، ولما أفاق سأل عبيده

عمن قتله فقالوا : فى ليلة من ليالى غيبتك فى الصيد جاءه عبد قال إنه من عبيد بنى محارب ، وتوسل إليه أن يجيره ، فرثى شيبوب لحاله وأجاره ، وأقام عنده ، وفى صبيحة اليوم الثالث وجدنا شيبوباً مذبوحاً فى مضجعه ، ولم نجد لهذا العبد أثراً ، ولا نعرف له مذهباً ولا خبراً . فدفنه بجوار قبر ميسرة وذبح كثيراً من النوق ، وأقام له مأتماً وفد إليه فيه كل كبير وصغير ، وأطعم الفقراء والضعفاء ، ثم اعتزل الناس وشئون الحياة ، غارقاً فى حزنه على أخيه ، متألماً تائه الفكر لأنه لا يعرف من قتله ، حتى يفرى عظمه ، ويبيد قومه .

كان هذا العبد يسمى سارح بن ناهب ، وهو من الخواضين فى الليل ولصوص الخيل ، وكان عنترة قد قتل أخاه المختلس فيما سلف من أيامه ، فأحب هذا العبد جارية اسمها زبيدة بنت مبادر ، وخطبها من أبيها فقال له : لن أزوجك ابنتى حتى تستوفى ثأرك من عنترة الذى قتل أخاك المختلس فقال سارح : عاهدنى على أن تزوجنى ابنتك إن أنا قتلت عنترة أو شيبوباً أخاه ، فعاهده على ذلك . فنهض سارح ولبس ثياباً مهلهلة ، وأخفى تحتها خنجره ، وذهب إلى شيبوب باكياً مستجيراً ، وقال له : أحببت جارية وعولت على الزواج منها ، فوجدتها أحبت غيرى وتزوجت منه ، فدخلت عليهما ليلا وذبحتهما ، ثم فررت إليك ، لأنى لم أجد من يحمينى ويجيرنى غير أخيك عنترة ، فرق شيبوب له وأجاره ، وأضافه فى

بيته . وفى اليوم الثالث من ضيافته دخل الخذروف على أبيه فألفى أباه مذبوحاً ، وبحث عن سارح هنا وهناك فلم يجد له ريحاً . فصاح الخذروف باكياً ، واجتمع أهل الحى إليه ، وذاع نبأ قتل شيبوب ، وماجت الأحياء بالحزن عليه والبكاء ، وكان قدوم عنترة من غيبته ، فأفضوا إليه بقصته .

أما سارح فإنه ذبح شيبوبا ، وتسلل فى غسق الليل ، ورجع إلى قومه وهناك أخبر والد الجارية بأنه قتل شيبوبا ، وأن عنترة لم يكن حاضرا ، ولو كان حاضراً لقتلته أيضاً ، وطلب منه أن يزوجه ابنته ، فأجابه إلى طلبته ، وزفها إليه وطابت لهم الحياة .

١٢

لم يجد عنترة فى اعتزاله شئون الحياة نفعاً ، فأحضر أخاه جريراً ، والخذروف ابن أخيه ، وأمرهما أن يبحثا عن قاتل أخيه فى كل مكان ، وألا يرجعا إليه إلا بخبره ، فقالا سمعاً وطاعة ، فلن نعود إليك إلا بنبأ يقين ، وخرجا يطوفان بالقبائل والحلل ، يتنسمان الأخبار ، حتى مرا ببنى ضهية ، فوجدا حيهم يعجّ بالغناء ، ويموج بالأفراح ، ويفيض بالنعيم ،

فسأل الخذروف بعض الرعاة وقال : أرى الأفراح قد نفضت عليكم أضواءها ، فهل فيكم سيد أو شجاع يتزوج ؟ فقالوا : نعم يا أخا العرب فهذه أفراح سارح بن ناهب أخى المختلس ، الذى قتله عنترة ، وقد أخذ بثأر أخيه هذا وقتل شيبوبا ، وأقام هذه الأفراح لانتصاره وأخذه بثأره ، ولزفاف عروسه إليه . فأسرعا بالعودة إلى عنترة ، وبلغاه ما رأيا وما سمعا . فدعا عنترة إليه ، عمرا ذا الكلب ، وزيد بن عروة وعمه مالكا وابنه عمرا وقال لهم : هيا إلى بنى ضهية فإن منهم قاتل شيبوب أخى ، وحكى لهم نبأ الخذروف الذى جاءه به ، فركبوا فى فرسانهم وطاروا إلى بنى ضهية ، فنهبوا أموالهم من المراعى ، وانتظروا خروجهم إلى ردّها ، ولما بلغ بنى ضهية من عبيدهم ما فعل بأموالهم نفروا على جيادهم لقتال المغيرين ، ورد الأموال من عنترة ورجاله ، فالتقى الفريقان ، ونزل على بنى ضهية من البلاء والموت جميع النهار ، ما قوض بنيانهم ، ونقص عددهم ، ولما انتهى النهار كانت الأرض مفروشة بالقتلى منهم ، فشكوا إلى بشر بن عبد اللات الدهمى ، والمرقال بن جندلة الضهوى ، وقالوا : لا طاقة لنا بقتال بنى عبس ، فإن فيهم عنترة الذى قهر الأبطال وأذل الجبابرة ، فإما برز أحدكما إليه فقتله وكفانا شره . وإما لُذْنا بالفرار . وخلينا لكم الأموال والديار ، فثارت فى رءوسهما حمية العرب ، وتسابقا إلى لقاء عنترة ، وكان السابق المرقال بن جندلة ، وبرز إليه فى عدة قتاله ، فما أمهله عنترة حتى بيت فى صدره

سنان رمحه ، وأكبه على الأرض غريقاً فى دمه ، فقال بنو ضبة لسارح بن ناهب : إنك السبب فى هذه الداهية الدهياء ، بقتلك شيبوباً أخا عنترة ، فابرز إليه ، وانصرنا بسيفك عليه ، فلم يجد بداً من الخروج إليه ومبارزته وجال فى الميدان قائلا : أنا سارح بن ناهب ، الذى قتل أخاك شيبوباً ، وقد برزت إليك الساعة لألحقك به ، وأدفع عنك الحزن عليه ، فانقض عنترة عليه انقضاض الصاعقة ، وطير بسيفه رأسه ، وداسه بسنابك جواده فقال بنو ضبة لبشر بن عبد اللات : ما بقى لنا رجاء إلا فى سيفك ، ولا أمل إلا فيك ، فماذا ترى ؟ فقال لهم : ما تأخرت عن المبارزة إلا لتعلنوا عجزكم ، وسترون كيف أنفس عنكم هذه الكربة ، وأقتل لكم عنترة ؟ ! ثم برز إليه يستوحى شجاعته ، ويستلهم جرأته ، ويتملق أسلحته ، وجال من حوله عنترة جولات جعله يضطرب اضطراب المهيض فى القفص ، ثم غرز فى صدره رمحه ، فهوى على الأرض جثة هامدة ، ونادى عمرو ذو الكلب فى بنى عبس : أن اهجموا على هؤلاء اللئام ، وامحوا ما فى نفوسهم من الآمال ، فتداكوا عليهم بخيلهم وأسلحتهم ، وجعلوا يقطعون منهم الأعناق ، ويشقون الصدور ، ويبقرون البطون حتى لاذوا بالفرار ، وولوا الأدبار ، ثم دخل عنترة ورجاله منازلهم فقوضوها وغنموا ما فيها من الأموال ، وتركوها قاعاً صفصفا ، ورجعوا إلى أوطانهم فائزين غانمين .

واستقبلهم أهل الحى والعشائر مستبشرين بما نالوا من نصر ، وما غنموا من مال وفير .

* * *

أما عمارة فقد كان فى حسرة وهمّ مما رأى فقال لأخيه الربيع : بودى أن أفرح بموت عنترة ولو يوماً واحداً ، ولا أراه فى تلك الكثرة من الرجال والأنصار ، وهذا الغنى الواسع والثراء الوفير ! ! فقال الربيع : يابن أمى ، إن عنترة قد أشرف على النهاية من قوته وعمره ، وأتباعه وحماته ، وقد بدأت تلك النهاية بموت أبنائه ، وشيبوب أخيه ، ولا يزال ظل الزمن يتقلص من حواليه ، وعما قريب لا ترى له وجوداً ولا أثراً ، فنقل إلى عنترة هذا الحديث أحد المحبين من عبيد الربيع ، فثار غيظه حتى بدا على وجهه فقال له عمرو ذوالكلب : لا تغيظنك أحقادهم ما دام حكمك نافذاً فيهم ولا يشغلك جحودهم لنعمك ما داموا فى حاجة إلى سيفك ، واحمد الله الذى جعل اطمئنانهم وأمنهم فى ظلال رمحك ، فقال عنترة : وحياتك يا عمرو لو اطلعت على نفوس بنى زياد وإحسانى إليهم وإساءتهم لى جميع حياتهم لذهلت ودهشت ، ثم جعل يسرد له عبراً من إحسانه وإساءتهم حتى قال عمرو : كفى كفى ! ! يا عنترة ! فما هم إلا لئام خونة ، من أوساخ القبائل ، وعكارة العشائر ، وإن أردت الرحيل عنهم ليذوقوا بؤس

الحياة من بعدك ، فإنى معك حيث تذهب وحيث تقيم ، فشكر له عنترة عطفه الكريم ، وأحبه محبة صادقة ، حتّى كان عنده بمثابة أبنائه وإخوته . أما أخته الهيفاء فقد ألفت عبلة وأحبتها ، كما ألفتها عبلة وأحبتها ، واتحدت مشاعرهما ، واتفقت ميولهما ، وكانت كل واحدة مكملة حياة أختها ، فلا تشعر بالهناءة إلا إذا كانت معها ، وأخذت عبلة تقرأ عليها تاريخ بنى زياد معها ومع زوجها عنترة ، والهيفاء تنتفض من هول ما تسمع ، وبينما هما تتحدثان دخل عليهما عمرو بن مالك أخو عبلة ، وآثار الغضب والجزع عليه بادية ، فقالت أخته عبلة : وقاك الله الشر يا أخى ، مالى أراك غاضباً قلقاً ؟! فقال عمرو : ومالى لا أجزع وقد نكبنا ببنى زياد من دون الناس ، فهذا الربيع بن زياد وأخوه عمارة لا يزالان على دأبهما فينا حتى يقطعا دابرنا ، وأنت تعلمين كم ظلم الربيع عنترة بمكره وكيده ، وكم ظلمنا نحن عنترة بسبب كيده ومكره وإغوائه ، وقد انكشف لنا وجه الحق ، وأمّنا فى ظلال ابن عمنا عنترة ، ولكن الربيع لايزال يسلقنا بلسانه ، محاولاً تشتيت ما جمع ، وتمزيق ما التأم ، لأنه من أشد الناس عداوة لنا ولعنترة . فقالت عبلة : وما سمعت من هذا الحاقد الماكر ؟ فقال : خرجت فى جماعة للغارة والكسب ، وذهبنا إلى بنى فهد فهزمنا رجالهم وغنمنا نوقهم وجمالهم وخيلهم ، ورآنا الربيع وأخوه عمارة ونحن عائدون بما غنمنا ، فسمعت الربيع يقول لعمارة : أرأيت كيف قوى عنترة ابن عمه عمرا ، وجعله قادراً على أن يغير

على القبائل ويغنم أموالهم ؟ أرأيت كيف نسى ما لحقه من العار والفضيحة بسبب هذا العبد الزنيم عنترة ؟! فقال عمارة : إن مجدهم فى نكوص ، وإن ظلهم فى تقلص ، فقال الربيع : إن مات عنترة فلن تقوم لبنى قراد قائمة ، وستكون عبلة كالأمة ، وعمرو أخوها كالمرأة ، ولا بد أن نحكمهم عن قريب ، ونعاملهم معاملة العبيد ، فلما سمعت حديثهم هذا أثار غضبى ولولا خوفى من فتنة ماحقة لقتلته وأخاه عمارة ، فضاق صدر عبلة ، وأصابهم من ذلك غم عظيم ، ورجع عمرو إلى منزله . ثم خرجت الهيفاء إلى أخيها وحكت له ما قاله عمرو بن مالك لأخته عبلة ، فقال : ما أصبر عنترة على هؤلاء اللئام ! ! وما أكرم سجاياه ! ! فقالت : إن عنترة فى قومه درة يتيمة لا يعرفون قدرها ، ولو أننى مكان عبلة لفعلت بالربيع ما فعلته بقتادة إذ قتلته فى نظرة . فقال أخوها : نحن ضيوف عندهم ، ولا ينبغى أن نسبقهم فى شئونهم .

ودخل عنترة على عبلة فوجدها حزينة كئيبة باكية ، فسألها عما أبكاها ، فقالت : شماتة الأعداء ، وخوضهم فى أعراضنا باللغو والهراء ، فقال : ومن هؤلاء ؟ فقالت : الربيع بن زياد وأخوه عمارة ، وحكت له حديث أخيها عمرو ، ثم قالت : ولن يطيب لى عيش معك بعد الآن حتى ترينى يوماً تسود فيه وجوههم وتبيض وجوهنا ، لأنى لم أستطع أن أحتمل آثامهم وشرورهم أكثر مما احتملت ، فقال : وما أنا بقاعد عن إرضائك ،

وكبت أعدائك . ثم جاء عبد الملك قيس يدعوه إليه . فلبى دعوته وخرج ذاهباً إليه ، فلقيه فى الطريق عمرو ذو الكلب فسلم عليه وحكى له ما جرى بينه وبين عبلة ، وقال : سر بنا إلى الملك قيس ، فقد دعانى إليه ليقف على أخبارنا وأحوالنا ، ولما دخلوا عليه وجدوه جالساً فى إخوته وأكابر عشيرته وفيهم الربيع وعمارة ، فوقفوا إجلالا لقدومهم ، ووقف الربيع مسايرة لهم ، فجذبه عمارة من ذيل ثوبه وقال : كيف تقف لعبد حقير مثل هذا ؟ ! وأدرك عنترة وعمرو ما فعله وقاله عمارة . فزاد ذلك من غيظهما وألمهما ، ثم جلسوا فأخذ الحديث يطوف بهم ويجول ، حتى مر بهم على الحارث بن زهير وقتله ، فبكى الملك قيس وبكى الحاضرون ابكائه ، وقال ورقة : الدنيا إلى فناء، ولكل امرئ أجل مسمى ، لا يتأخر عنه ساعة ولا يتقدم، ونحن بخير ما دام فينا حاميتنا عنترة بن شداد ، وقد من الله علينا بهذا البطل الكريم — وأشار إلى عمرو ذى الكلب — فوقف عمرو وقال : لقد أصبحتم فى الذروة بين العرب مجداً ورفعة ، بفضل بطلكم عنترة الذى خوف العرب والعجم ، وله فضل عظيم على البادى والحاضر ، وأنا من عتقائه وأصبحت من غلمانه وأصدقائه وأحبائه ، فاتخذوا من الماضى عبرة لكم ، ولا تجعلوا للأحقاد سبيلا إلى نفوسكم ، وقد انشرح صدرى بصداقة عنترة لنكون من أعوان الملك قيس وأنصاره ، ونبذل النفس فى حمايته وإعزاز ملكه . فشكر له الملك قيس جميل صداقته ، وجعل يثنى عليه ثناء كثيراً ،

وجعلوا ينظرون إليه وهم فى عجب من طول قامته وكبر جسمه ، ومن أن عنترة غلبه وقهره ، وقال عمارة لأخيه الربيع : إن الهيفاء أخته ، جميلة فاتنة فلو زوجنيها لسلوت عبلة ، فغضب الربيع وقال : أخرس الله لسانك ، وزاد فى غيك وضلالك ، إنك أضعف شأناً من أن تخاطب هذه الفارسة ، فكيف تطمع فى أن تكون زوجاً لها ؟ ! ! وأقسم بالله إن تعرضت لها لأقتلنك ، فقد كرهنا الحياة لرقاعتك ، وسئمنا الناس لحمقك وجهالتك .

وكان المجلس فى شغل بالحديث عنهما ، ولكن عنترة يقظ لهما وسامع ما يدور بينهما . وتناول الحديث قتال عنترة لبنى ضهبة فقال عنترة : ومن رفع سمك السماء فسواها ما جهلت فيما مضى ، وما تقبلت قضاء الله إلا بالرضا لأن الآجال مقدورة ، والأمور نافذة لا مرد لها ، ولكنى أجد قوماً لا يغفلون عن الخوض فى سيرتى والكيد لى ، وبلغ من جبنهم ولؤمهم أنهم يلقوننى بوجوه باسمة ، ومن ورائها قلوب مظلمة حاقدة ، وقد أساءوا إلينا كثيراً ، وأحسنت إليهم إحساناً ، فأحييت منهم نفوساً ، وكشفت عنهم بلاء عبوساً ، ووصلت ما قطعوا ، وبنيت ما هدموا ، ولئن لم ينتهوا عن خطتهم لأقطعن أعناقهم ، أو لأشردنهم فى الآفاق ، ثم لأرحلن من دياركم ، ولن أعود إليها أبداً . فأدرك الملك قيس أن فى الأمر شيئاً جللا ، وأن حلمه الذى رآه فى المنام أوشك أن يتحقق ، فقال : لقد اجتمعنا لنصرف ما بنا من الأحزان ، ونجدد عهد الأخوة والمحبة بين الأصحاب

والأحباب ، وإنى لأشد الناس خوفاً عليكم من حلم رأيته فى منامى ، فقال عنترة : ليس أضر على العشيرة من الربيع وأخيه عمارة ، فلجأ الربيع إلى خبثه ودهائه وقال : يابن عمى ، نحن لا ننسى فضلك علينا ، ولا نكنّ لك فى صدورنا إلا كل محبة وإجلال ، فما الذى بلغك عنا ، فجعلنا عندك لا نستأهل شيئاً ؟ فقص عليه ما دار بينه وبين أخيه عمارة من الحديث ، وعمرو بن مالك قادم بما غنم من بنى فهد ، فقال الربيع : ما تحدثت بهذا إلا مسايرة لجهل عمارة وغبائه ، وأما أنت فلن يرتاب أحد فى أننا نعيش فى ظلال سيفك ورمحك ، وأنك عندنا أحب إلينا من نفوسنا ، وقد وسعنا حلمك وعفوك ، ونعمنا بسجاياك وفضلك . فسكت عن عنترة غضبه ، وقال عمرو ذو الكلب : دعونا من هذا الكلام ، ولنستمع لما رآه الملك قيس فى المنام ، فسكت الحاضرون وأنصتوا وبدأ الملك يقص رؤياه فقال : رأيت كأنى طير فى الجو ، ومن حولى طيور مختلفة الأجناس ، وقد امتلأت الأرض بالوحوش الضارية ، وجعلن يتخطفن الطيور من كل ناحية ، والطيور آخذة فى الهرب ، حتّى تفرقت أشتاتاً فى الجواء ، وهذه رؤياى قصصتها عليكم ، فاتركوا العناد ، واعتصموا بالمحبة والوداد ، فإن يد الله مع الجماعة ، ثم انفرط عقد المجلس وذهب كل إلى منزله ما عدا الربيع بن زياد وعمارة ، ولما دخل عنترة على عبلة سألته عما دار فى مجلس الملك قيس ، فسرد عليها الحديث جميعه ، فقالت : يحسن أن نرحل عن هذه

الديار ، فقال : لن أرحل منها حتّى أجعل الأيام على بنى زياد سوداً ، وأريك فيهم كل عبرة ، حتّى يطيب عيشك ، وتقر عينك .

* * *

انتظر الربيع فى مجلس الملك حتّى خلا من جلسائه ، ثم قال الربيع للملك : هل يجمل بعنترة أن يتقول علينا هذه الأقاويل ويرمينا بالنفاق والغدر ، وينذرنا موتاً ونكالا ، وأنت ملاذنا وحمانا ؟ ! فقال الملك قيس : ومن منا يستطيع أن يناوئ عنترة أو يعاديه ، وهو فى نفسه قوة لا تغلب ، وزاد قوة بصداقته لعمرو ذى الكلب وأخته الهيفاء ؟ ! فقال عمارة : لا أكون عمارة الوهاب إن لم أذل عنترة ذل الكلاب ، ولقد حدثتنى نفسى أن أقتله فى مجلسك ولكنى خشيت منك ، ولن أسكت عن قتله عاجلا أو آجلا ! فقال قيس : إنك مغرور يا عمارة ، وإن تعرضت لعنترة فقد أهلكت نفسك وأهلكت من يناصرك ، على أنه إن صح قولك فارتقب تخريب ديارنا ومحو آثارنا على أيدى عمرو وأخته قناصة الرجال ، ثم انفض مجلسهم وذهب كل إلى داره ، وانسل عبد من عبيد الملك يحب عنترة فذهب إلى جرير أخيه وبلغه ما دار من حديث الربيع وأخيه أمام الملك وقال له : بلغ أخاك وحذره بغى بنى زياد وغدرهم وأنهم جادون فى السعى وراء قتله ، فشكر له جرير صادق نصحه وأثنى عليه .

وفى اليوم الثانى خرج بنو عبس إلى غدير ذات الأرصاد ليستروحوا

هناك بعضاً من الوقت حسب عادتهم ، وفى أثناء سيرهم حدث جرير أخاه عنترة بما قاله العبد وحذره الربيع وعمارة فقال عنترة : اكتم هذا الحديث فإنى عازم على أن أقتلهما فقد ضقت بنفاقهما ذرعا ، ثم سار عمرو إلى جانبه وسأله عن حاله فقال : لعن الله بنى زياد ، ولا جعل لهم حياة بين عباده ، فهم أناس لا خلاق لهم ولا ذمة ولا وفاء ، ثم حدثه بحديث العبد ، فقالت الهيفاء : إن أردت يا أخى أن أخطفه من ظهر جواده وأضرب به الأرض ضربة قاضية فعلت ، وقد حدثتنى أختى عبلة عن بنى زياد كثيراً عن مساويهم ، فقال عنترة : يا أختى ، لا تحركى ساكناً فإنى عازم أن أنجز رأيك فيهم قريباً ، وفى أثناء جلوسهم دعاهم الملك إلى وليمة يقيمها تكريماً لعمرو وأخته الهيفاء وترويحاً عنهما بسماع شجى الغناء ، ثم رجعوا إلى الديار ، ولما تم إعداد الوليمة أرسل الملك فى طلب عنترة وصديقه عمرو فحضرا وحضر جميع المدعوين ، ثم أكلوا وشربوا ، وجعلوا يسمعون الغناء وبينما هم على تلك الحال سمع عنترة الربيع يقول لأخيه عمارة : إن عنترة ثمل ، وليس معه إلا عمرو صديقه ، وتلك فرصتك السانحة ، فاهجم عليه واقتله بسيفك ، وأزل عن صدورنا ذلك الكابوس ، فأسرع عنترة وجرد سيفه وأقبل على الربيع فضربه وشقه نصفين ، وهمَّ عمارة أن يضرب عنترة ، فابتدره بضربة أخرى شقته نصفين ، ومات ميتة أخيه ، وطهرت الديار من نفاقهما وأحقادهما وغدرهما ، وذاع النبأ فعمت الأحزان وصار بيت

الملك قيس غريقاً فى أحزانه وهمومه ، ولما قتل عنترة الربيع وعمارة جرد عمرو ذو الكلب حسامه ، ولازم صديقه ، وخرجا إلى منازلهما ، وأنذرا من يتبعهما هلاكاً محتوماً ، ولما وصلا إلى منازلهما وجدا الهيفاء قد أعدت نفسها للقتال وملاقاة الأبطال ، وبينما عنترة جالس فى خيمته دخل عليه ورقة بن زهير فقال : لقد بيضت وجهك اليوم ، ولكن أخى الملك قيساً يقول لك : إما أن ترحل عن الديار ، وإما أن يرحل هو ، فقال عنترة : نحن الراحلون فى التو والساعة ، وهذا فراق بينى وبين بنى عبس ، وقام هو وعمرو وأخته الهيفاء وبنو قراد إلى البيوت فقوضوها ، وأخذوا أموالهم وأمتعتهم ، وساروا إلى أرض العراق ، ونزلوا فى مكان بين نهر الفرات ومدينة غانة بجانب خليج يسمى العارضيات ، وكان المكان خصباً واسع المراعى ، وأقاموا خيامهم ومضاربهم ، وأقام عنترة مضرباً كان قد أخذه من الملك كسرى ، وهو من الحرير الأصفر ، ذو أعمدة من الصندل المطلى بالذهب ، وأطنابه من الحرير الأخضر وفرشه بالبسط والنمارق فكان بهجة للناظرين ، وكان هذا إلى جانب نهر الفرات ، وأقاموا فى مكانهم الجديد فى أرغد عيشة هانئين ، وكان قد أعجب عنترة بالهيفاء ، وأعجبت الهيفاء بعنترة ، وتحول هذا الإعجاب إلى محبة ربطت بين القلبين ، وجعلت هذه المحبة تنمو وتنمو حتى كانت الرغبة فى الزواج شديدة فى كل قلب ، فخلا عنترة بعمرو وأفضى له بذات نفسه ، وأبدى له الرغبة الملحة فى الزواج من أخته ،

ففرح عمرو وقال : تلك أمنية كنت أرجو من الله أن يمن علينا بها ، ثم قام إلى أخته ، وبلغها رغبة عنترة فى الزواج منها ، فقبلت ، ثم أبرم عقد الزواج وزفت إليه ، وكان كل أولئك على غير علم من عبلة ، التى كان يقضى معها بقية لياليه ، بعد أن يكون قد قضى مع الهيفاء أنصافها الأولى أو أكثر من أنصافها أو أقل . وعاشوا على تلك الحال ، وعبلة لا تدرى شيئاً من أمر هذا الزواج .

وصل نبأ هجرة عنترة إلى وزير الملك قيصر ، فعزل عمرو بن الحارث عن ولاية دمشق الشام ، وولى مكانه ملكاً من ملوك الروم اسمه ضيفور ولما بلغ عنترة ما فعله وزير قيصر ، ركب إلى دمشق وقتل ضيفور ومن معه من الروم ، وأجلس عمرًا على دمشق كما كان . فغضب الملك قيصر وهمّ أن يبعث إلى عنترة جيشاً يحاربه ، فقال وزيره : لا تنس أيها الملك ما لعنترة من فضل على الروم وملكهم ، ولا تنس أن هذا عنترة بن شداد الذى فى قدرته أن يخضع دولة الروم إلى سيفه وحكمه ، ومن الحزم والخير لك أن تصادقه وتواليه لتأمن سطوته وشره ، وليكون خير عون لك فى شدتك ، وأرى أن ترسل إليه هدية تكون آية محبتك ورضاك . فوجد الملك فيما رآه الوزير سداداً وخيراً ، وبعث إليه الوزير ومعه مائة وخمسون جواداً عربيّاً مطهماً ، وعشر جوار روميات مع كل واحدة صندوقان من القماش ولها عشر جوار مختلفة الأجناس ، وخيام ومضارب وغلمان وخدم . فلما جاءه

لقيه عنترة لقاء كريماً ، وأجلسه فى مكان ضيافته ، وقال له الوزير : إن الملك قيصر ما نسيك حين حللت فى منزلك الجديد ، وقد أرسلنى إليك بهذه الهدية لتكون منه رمز محبة وولاء ، وهذه الهدية قسم منها لك ، وقسم لعمرو صديقك ، وقسم لمن تحبه ، فقال عنترة : شكراً للملك ، وإنى للملك خادم ، وإن ناوأه العداء أحد ممن لا يقدر عليهم بعثنى إليه لأسوقه أسيراً بين يديه ، أو أنزع روحه من بين جنبيه ، فقال الوزير : لم تكن هذه الهدية من أجل عدو يريد كبته وقهره ، ولكنه أرسلها تقرباً إليك وزلفى ، ولتكون أوضح بيان عما يكنه لك فى صدره من مودة واحترام ، وأقام الوزير عنده أحد عشر يوماً ، رأى فيها الأموال والهدايا تنهال عليه انهيالا ، من جميع البلاد . فقال الوزير : لو أن قيصر نفسه نزل بهذا المكان ما انهالت عليه الهدايا كعنترة . فلما استأذنه فى المسير إلى ملكه قيصر منحه الخلع وكثيراً من الأموال ، ثم ودعه فسار إلى القسطنطينية ، ودخل على قيصر وأخبره بما رأى وأراه الهدايا والأموال التى رجع بها ، ففرح الملك وقال : لقد سعدنا بمصادقة عنترة ، وأمنا شره ومعاداته .

استأذن عنترة قيصر أن يعود إلى دياره لأنه اشتاق إلى أهله فأذن له ، وحمل عنترة معه من الأموال والهدايا شيئاً يفوق الحصر ، فجاد بكثير منه على رؤساء القبائل الذين صاحبوه ، ورجع إلى منازله ، وقابلوه فرحين مستبشرين . وشكر للهيفاء حسن رعايتها للأهل والأموال مدة غيبته ،

ودخل على عبلة فبات عندها ، وفى الصباح أقام الولائم وأطعم الطعام ، وقدعم بقدومه الفرح ،وجاءته الهدايامن كل ناحية وأقامعنترة فى أرغدعيش تهابه الملوك وترسل إليه الهدايا ، وهو فى عز مقيم .

١٣

كان الأسد الرهيص الذى سمل عنترة عينيه ثم عفا عنه وأطلقه ، يقتفى آثاره ، ويتتبع أخباره لأنه مصر على قتله ، ولهذا تعلم إصابة الهدف بنبلة على الصوت ، حتى حذق الرمى وإصابة منبع الصوت ، فإذا تكلم إنسان أصاب فمه ، وإذا صفق أصاب يده ، فقال لعبده نجم : إن عنترة الآن فى أرض العراق ، وهو يعيش الآن عيشة أمن ولهو وراحة ،وقد مضى على اثنتان وعشرون سنة وستة أشهر ، وأنا سجين هذا العمى الذى أصابنى به عنترة ، فخذنى إليه لأكمن له فى إحدى حرجات غابة حوله ، ولعلى أجد فرصة فأرميه بنبلة تصيب مقتله ، فقال العبد : إن أردت الرحيل الآن فلا مانع لدى ؛ فأخذ الأسد الرهيص قوسه وكنانة مملوءة بالنبال ، وأركبه العبد ناقة ، ووضع عليها زادهما وأمسك زمامها وسار به إلى أرض العراق ، وأدخله العبد فى غابة قريبة من منزل عنترة ، فلم يسمع فى مكمنه هذا إلا

جلبة الحديث والغناء ونباح الكلاب ، فقال له العبد : لقد عرضتنى وإياك للهلاك ، ولا أرى لك سبيلا إلى عنترة ، فقال : صدقت يا نجم ، ولكن إذا نزل القدر عمى البصر ، وإذا أراد الله أمراً هيأ له أسبابه ، وعسى أن تكون منيته قد حانت ، وتكون بنبلة من نبالى المسمومة ، ولأمت بعد ذلك فليس لى فى الحياة غناء بعد موته ، وما كنت أحب الحياة بعد العمى إلا لأقتله ، وهأنذا مختبئ فى مكانى حتى أسمع صوته ، وأرميه بنبلة مسمومة ، إن أصابت جسمه فلا مفر له من الموت ، فلما مضى من الليل ثلثه إلا قليلا ، قال لنجم : أخرجنى من هذه الغابة واجعلنى قريباً من منزل عنترة فإنى لا أسمع صوته الآن ، فأخرجه وأقعده تجاه منزل عنترة ، فأعد قوسه ، وانتظر يستمع لصوت عنترة ، ومن عجائب القدر ، أن عنترة كان نائماً بجوار عبلة ، فسمع نباح الكلاب يكثر ويرتفع ، فنهض من نومه وخرج من مضربه ، ونادى أخاه جريراً وقال له : ما الخبر ؟ وما بال الكلاب كثر وعلا نباحها فى هذه الليلة الحالكة ؟ فقال : لا أعلم شيئاً لأن الظلام شديد ، ونباح الكلاب جميعه إلى جانب نهر الفرات ، ولكنى لم أر شيئاً لشدة الظلام ، فقام عنترة إلى حسامه وأخذه ثم خرج يمشى على شاطئ النهر وهو يتكلم مع أخيه جرير . فسمعه الأسد الرهيص يقول : لن تجده إلا أحد اللصوص ، ساقه غروره وطمعه ، وظن أنه يستطيع أن يسرق شيئاً من حمى عنترة ، وإنى يا أخى لو هاجمت ربيعة ومضر لأذقتهم الموت الأحمر

وما أظن أحداً يجرؤ على أن يأتى حينا أو منازلنا خفية ليسلب منها شيئاً .
ولما فرغ من كلامه أحس أنه فى حاجة إلى أن يبول ، فنظر حواليه ثم جلس ليقضى حاجته ، وكان وجهه تجاه الأسد الرهيص الذى هو فى يقظة حادة وحرص على تحقيق بغيته ، وكان عنترة إذا بال سمع لبوله صوت كدوى الرحا ، لشدة اندفاعه ، وإذا بال على حجر ثقبه . فلما سمع الأسد الرهيص دوى البول صوب إليه نبلة ورماه بها فدخلت فى خصيته ثم نفذت إلى أمعائه ، فلم يتحرك عنترة من موضعه ، ولا توهم منها ، ولم يعلم جرير عنها شيئاً وكان واقفاً بجانبه ، ولكنه سمعه يقول : لقد أصابت نبلتك القربة فشقت جلدها ، وستلقى منا الشر والأذى أيها الشيطان . فظن الأسد الرهيص أن النبلة أصابت قربة من الماء فاشتد به خوفه وفزعه وشهق شهقة كان فيها موته ، وكلمه عبده فلم يجبه ، فمد إليه يده فوجده قد مات ففزع العبد وجرى نحو ناقته وركبها وخرج بها ليلا وهو أسرع من الريح خوفاً من عنترة حتى كان فى بنى نبهان ، وما كان يظن أنه سيصل إليهم سالماً . وأما عنترة فإنه قام ورجع إلى منزله متوكئاً على سيفه ، وجرير يمشى قدامه ، وهو يتململ مما أصابه ، حتى دخل على عبلة وأعلمها بما جرى له فانزعجت وبكت وصاحت لاطمة مولولة ، فهب أهل الحى رجاله ونساؤه وأسرعوا إلى منزل عنترة ، وأخذوا يسألونه ، فحكى لهم ما جرى ، ثم قال : ولا أدرى إذا كانت النبلة من هذا الشاطئ أو من الشاطئ الآخر ،

فنزع جرير عنه ثيابه وسبح فى النهر حتى طلع إلى البر الثانى ، ومشى يتجسس ، فعثر بالأسد الرهيص مرمياً على شفير النهر ، والقوس وكنانة النبال بجانبه ، فحمله جرير وقوسه وكنانته ، ورجع به إلى عنترة ، وقال : هذا من وجدته مرمياً على شفير النهر وليس به حياة ، فعرفه عنترة وعرفه الحاضرون ، وأدرك عنترة أنه ميت ولا نجاة له فقال : عفونا عنك وغدرت ، وأمنا جانبك وخنت ، وفعلت فعلتك وأنت تتقلب على مهاد نعمتى ورحمى ولكنه قضاء الله الذى لا مرد له ، وقد عشت بعدك أيها الخائن ولم تنل مرادك ، فلم تعش من بعدى ساعة من زمن ، فاذهب غير مأسوف عليك ثم أمر أن يحرق جسمه ، ويسحق ويرمى فى النهر حتى لا يكون له قبر يعرف ، ففعلوا ما أمر به ، وذهب إلى جهنم وبئس المصير . وبات عنترة وهو يتململ مما أصابه ، وباتت عبلة فى بكاء من أجله ، واجتمع أهل الحى فى الصباح عنده يبكون ويلطمون ، فقال لهم : خففوا من بكائكم وجزعكم ، فهذا قضاء الله ، ومهما يعمر الإنسان فإن مصيره إلى الفناء ، ثم قال لعبلة : إنى ميت لا محالة ، وسيحل ببنى عبس الهوان والضيم ، وسيتخطفهم العرب قويهم وضعيفهم ، وسيطالبونهم بثأرهم ؛ فالبسى ملابسى وتدرعى بدروعى ، وتقلدى حسامى ، واركبى جوادا من جيادى واذهبى فى صحبة والدك وأخيك إلى ديار بنى عبس وعدنان .واعلمى أنهم لا يستطيعون أن يحموك ، ولا بد أن يكون لك من يحميك من بعدى ، ولهذا

أوصيك أن تكونى أهلا لأحد الرجلين : الأمير زيد الخيل بن المهلهل ، أو عامر بن الطفيل ، فإن أحدهما قادر أن يحميك من الأعداء حتّى يوافيك الأجل ، وإن أنت تنكرت فى شكلى وامتنعت عن الكلام وأنت سائرة فى البرية فذلك أدنى إلى ألا يعرفك أحد ، وأن تكونى عنترة عند من يراك . وكان لهذا القول أثره الأليم فى نفس عبلة ونفوس الحاضرين فبكت وبكوا ، والتفت إلى عمرو ذى الكلب وقال : أوصيك يا أخى بزيد ابن عروة فإن أباه كان من أعز أصدقائى ، ووصاه بأخته الهيفاء ، وبنى قضاعة ، ووصى أن تكون أمواله إلى بنى قضاعة ، وبنى قراد ، وعبلة ، والهيفاء ، فلما سمعت الهيفاء أن لها نصيباً فى أمواله ، حلفت ألا تملك شيئاً من بعده ، وألا تجد إلا شراً وضراً ؛ وقال لبنى عبس : أقيموا فى منازلكم هذه حتى أشيع عبلة إلى أهلها وديارها ، فقال عمرو ذو الكلب : استرح أنت فى مكانك هذا ، وسأصحب عبلة حتّى أوصلها إلى حيث تريد ؛ ثم أعود إليك من فورى ، فقال عنترة : ذلك ما لا يكون ، فإنى أخشى أن يقال : إن عنترة عند موته خاف من العرب فعكف فى منزله ، وجعل له من يحرسه ويحميه ، ثم نهض مضطرباً فى ألمه وأركب عبلة الجواد ، وقوض أهله خيامه ، وحملوها على النوق والجمال ، وركب هو فى هودج عبلة ؛ وسار وعبلة قدامه ، وسادات بنى قراد ، وعمرو ذو الكلب وأخته وأصحابه من خلفه ، وبعد خمسة أيام من مسيرهم قال عنترة لعمرو وذى الكلب

امض أنت وأختك إلى قبيلتك ، فإنى أعلم أن بنى عبس لا تقوم لهم من بعدى قائمة ، ويتعبك وجودك فيهم ، لأنهم سيجرونك إلى معاداة العرب ، ولا صبر لك عليها ، ووصيّى لك زيد بن عروة وأن تأخذ بثأرى من بنى نبهان ، فبكى عمرو وقال : طب نفساً فإنى لن أترك منهم أحداً ، وسأنتظر حتّى تأتينى الأخبار بأن القضاء قد نفذ ، ثم ودعه وانصرف .
وبعد سيره أياماً قال لجرير أخيه والخذروف : سلما علىّ سلام الوداع والفراق ، وامضيا إلى بنى عبس ، وانعيانى إليهم ، وقصا عليهم قصتى ، فإنكما لن تريانى بعد ذلك حيًّا ، فسبقاه إلى بنى عبس وهما يبكيان . ثم سار ومن حوله بنو قراد ، ومر بهم موكب من العرب ، فقال أحدهم : إن الجواد جواد عنترة ، والسلاح سلاح عنترة ، ولكن الراكب ليس عنترة ، فلا القامة قامته ، ولا الهمة همته ، وإن صدق ظنى فلن يكون الراكب إلا عبلة ، وأما عنترة فإنه مات أو حلت به نائبة ، فتعالوا بنا نكشف أخبارهم ، ولننتظر حتّى ينزل عنترة ليبول ، ثم نبصر موضع بوله ، وبذلك نعرف إن كان الراكب عنترة أو غيره ، وكان أن نزلت عبلة فأراقت الماء ثم بعدت ، فجاءوا إلى موضع بولها فوجدوا الماء مفروشاً على الأرض ولا حفرة فيها ، فأيقنوا أن الراكب امرأة ، وظنوها عبلة ، واتفقوا أن يحملوا عليهم وينهبوا أموالهم ، ولما حملوا عليهم وهموا أن يعملوا فيهم أسلحتهم ، صاحت عبلة قائلة : يابن العم ، أدركتنا الأعداء ، وتريد سبينا ونهب

أموالنا ، فأطل عنترة من الهودج وهو يقاسى آلام الموت وصاح صيحة مدوية ، وقال : أيها الأوغاد ، أنا عنترة بن شداد ، وسأريكم ضرباً يفرى منكم الأجساد ، فانخلعت من الرعب قلوبهم ، وفروا هاربين مبعدين ، وقالوا : إن عنترة أخفى نفسه ، لينظر من يتعرض لأهله ، ثم يبيده ويمحقه ثم نزل عنترة وركب جواده الأبجر ، واتكأ على رمحه ، كأنه يريد النوم ، وكان قد اعتاد أن ينام على جواده الأبجر ، فلا يتحرك ما دام نائماً ، وأركب عبلة الهودج وأمرهم أن يسيروا ويجدوا ، وهو نائم على جواده ، حتى يصلوا إلى الديار ، ويأتى قومه ليأخذوه ، وكان الرجال الهاربون ينظرون إليه ، فانتظروا طويلا حتى غاب ركبه عن الأنظار ، أما عنترة فهو على جواده ، وهم يحسبونه نائماً ، وكان قد شهق شهقة خرجت فيها روحه ، ولما طال انتظارهم قال قائلهم : إنى لأظن أن عنترة قد مات ، ولو كان حياً ما سكت عن قتالنا ، ولسقانا كئوس الردى ، ولما أوشكت الشمس أن تغيب ، قال لهم : سأرسل فرسى إلى الأبجر ، فإنها الآن فى موسم الطلب ، وستجعله يتحرك من تحت عنترة ، فإما كان ميتاً فسقط ، وإما كان حياً فاستيقظ ، وبذلك نتبين أمره ، فقالوا : حسناً رأيت ، وأطلق فرسه فذهبت إلى الأبجر واحتكت به ، فتحرك قليلا ، وسقط عنترة على الأرض جثة هامدة ، فهجموا عليه وأخذوا سلبه ، أما جواده الأبجر فإنه انطلق هائماً حتى غاب عن الأنظار بين الروابى والقفار . وهموا بالرحيل ،

فقال أحدهم : أتأخذون سلب عنترة ، وتتركونه ملقى فى الفلاة ؟ إن عنترة الذى ملأ فم الزمان بمحامده لا يستأهل منكم هذا المصير ، فأكرموه كما أكرم الناس ، وواروا جسمه التراب ، فحفروا له قبراً ودفنوه فيه ووضعوا عدته وسلاحه على قبره ثم مضوا إلى سبيلهم ، وكانت مدة علته خمسة أشهر وخمسة أيام ، وبذلك قوضت حياة رجل سما بشجاعته وبلاغته وكريم أفعاله ، وتلك سنة الله فى خلقه ، فإن البحر مهما يرتفع مده ، فلا بد من جزره .

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٧

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر